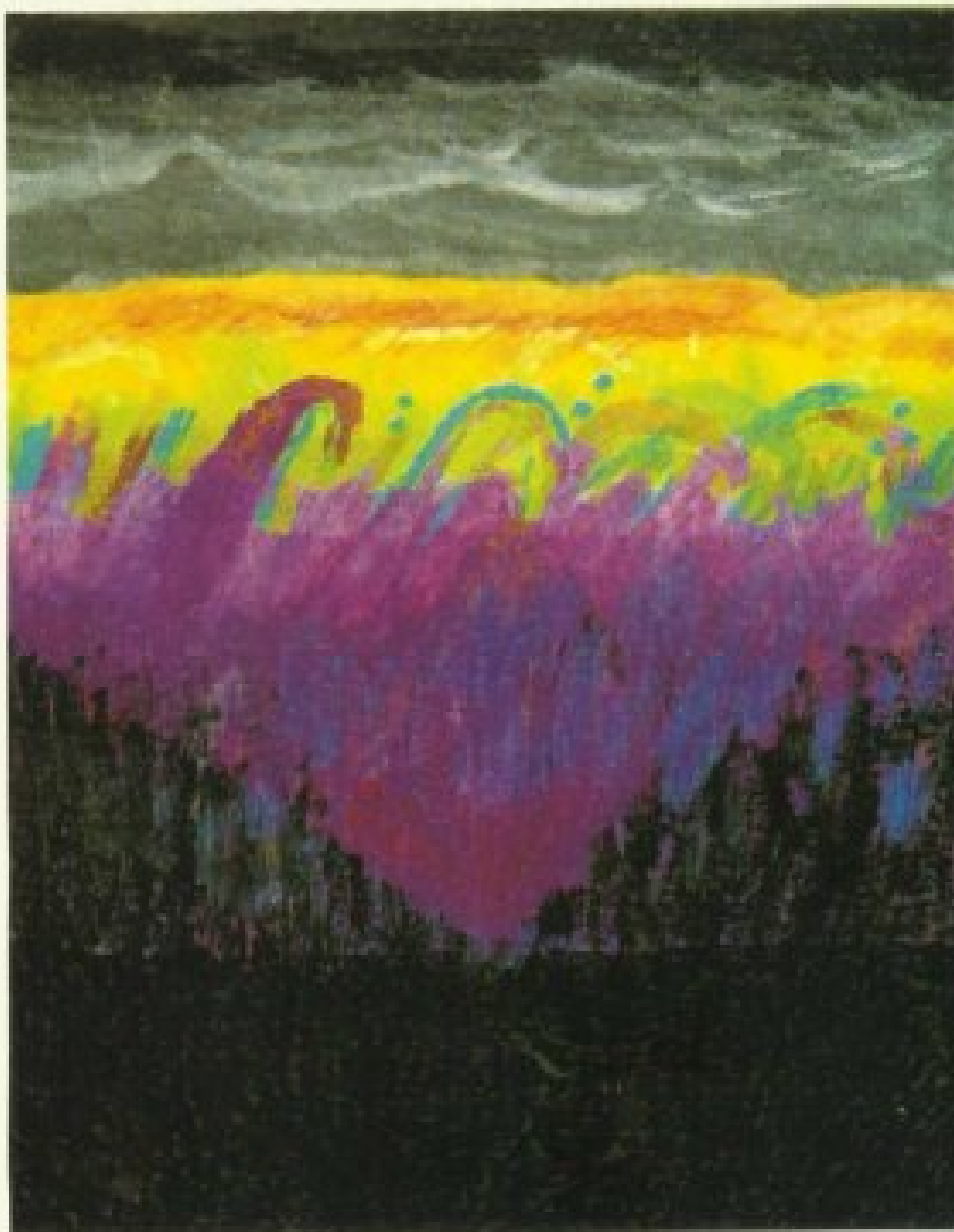
[illegible] الأنصاري

كشف المحجوب



رواية

كشفُ المحجوب

رواية

الكتاب: كشف المحجوب

المؤلف: فريد الأنصاري

الطبعة الأولى: 1419هـ/1999م

لوحة الغلاف من إنجاز المؤلف

السحب: أنفوبرانت فاس TEL: 64-17-26

رقم الإيداع القانوني: 1998/752

زيد الأنصاري

كشف المحجوب

رواية



الإهداء



شلال الروح

«وأما ما قلتُه من أني أسميت هذا الكتاب «كشف المحجوب» (...) فإن أهل البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون ماذا كان المراد منه (...) ولما كان هذا الكتاب في بيان طريق الحق، وشرح الأقوال، وكشف حجب البشرية؛ فإنه لا يناسبه غير هذا الاسم!

والكشف في الحقيقة هو هلاكٌ للمحجوب، كما أن الحجاب هلاك المكاشَف؛ لأنه لا طاقة للقريب بالبعد، ولا للبعيد بالقرب (...) وسلوك طريق المعاني صعب جدا إلا لمن خلق من أجله!»(*)

الإمام الهجويري (ت. 492 هـ)

(*) من مقدمة كتابه (كشف المحجوب). ترجمته عن الفارسية الدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل.

قلق الروح

<<(طيريزا) تتأمل وجهها في المرآة.. إنها تتساءل عما كان سيحدث لو أن أنفها نما بمقدار ميليمتر واحد كل يوم؟.. كم من الوقت يكفي ليصبح وجهها غير معروف؟.. وإذا لم يعد وجهها يشبه أبدا وجه طيريزا؛ أتبقى طيريزا دائما هي طيريزا؟.. أين تبدأ الأنا وأين تنتهي؟

تلاحظون: لا اندهاش أمام لامنتهى الروح غير المسبور، وإنما هناك اندهاش تجاه عدم اليقين الخاص بالأنا وبهويتها!>>(*)

الروائي التشيكي، ميلان كونديرا.

(*) من حديثه عن روايته: (L'insoutenable légèrté de l'être) خلال كتابه: (L'art du roman) ص: 41

.1.

لم أهتد بعدُ إليها!

عشر سنوات مرت! .. وأنا أبحث جاهدا.. عشر سنوات كاملات وأنا ألهث، لكن دون جدوى..

بدأت أحزاني حكاية من خيال، رغبة مجنونة في الحكي على طريقة المتأدبين الكذبة، فإذا بها حقيقة واقعة مثلما أنكم الساعة تقرؤون!

وإذا بها تسكنني، تلاحقني في كل مكان!

أراها جيدا ـ كما أنكم تنظرون ـ في اليقظة لا في المنام، أسمع صوتها ـ كما أنكم تسمعون ـ أقترب منها حتى تطأ قدمي ظلها الجميل.. فإذا مددت يدي نحوها تبخرت الأطياف في الفضاء!

تقولون مجنون!.. ربما.. وما الحب إن لم يكن طيفا من الجنون؟

سأحكي لكم سادتي فلا تستعجلوا!.. إني لم أعد أطيق السكوت.. فلطالما تكتمت عنها.. لكني الآن تعبت! أعلم أن ذلك ربما أضر بي.. فقد يسبب لي متاعب ما.. لكني فقدت كثيرا وعانيت أكثر، فلم يبق لي في الواقع ما أخسره!

لقد قررت الكلام.. سأبوح لكم، فلربما دلني أحد منكم عليها! من يدري؟.. فأنا رجل لا يعرف اليأس!.. سأظل أبحث في كل مكان.. حتى أجدها أو أموت معذورا!

ما تركت رائحا أو غاديا إلا سألته، ولا جبلا أو واديا إلا نزلته، ولا مَدَراً أو وبَراً إلا طرقته!

استنشقت الريح الآتي من سهوب الشيح؛ لعلي... فما وجدت لرائحتها أثرا!.. نفضت البيدا،، رمالها ونخيلها، سألت بعراتها وأشياحها، ولا من رش وجهي ببعض قصيدها!.. طفت المدائن كلها، دخانها وضبابها، همت بين الأزقة مجذوبا تحت الأمطار، أرجو إشارة آخر الليل، لعل ومضة من بين بوارقها تخطفني وأنا مبلول الأحزان.. ولكن، بلا جدوى.. تدفقت الأنهار على البحار!

استيقظت قبل استيقاظ الصباح، على قمم الغابات العوالي؛ كي ألتقط أول صفير العصفور، فأنشج معه متدفقا بلطف مع أول خيط النور، حتى إذا رق العزف الشجي، وبلغ العصفور ذروة الحال، فانتشى محمولا بحفيف التغريد؛ سألته عنها؛ لكنه... ويحي!.. وكأني باسادتي سألت المحال.. نظر إلي فهز جناحيه استخفافا وطار!

ذات مساء شارد، وقفت وصاحبيَّ؛ على شاطئ البحيرة الغربية، أرقب الماء الساجي، والأعشاب المنسية.. تسلقت شجرة تشتاق غصونها للإبحار، فامتدت حانية على الماء.. قال صاحباي:

- ويحك انزل!.. هذه الأغصان عليلة يميل بها الهوى.. فقد تنهار بك اللحظة في اللجة!

قلت:

- إنما علتها من علتي.. تسلقتها فكانت لها أحوال!.. فاتركاني خليليَّ؛ إني شممت في هذا النسيم الراحل شيئا.. ما لجناحي الخافق

الساعة من إرادة!

وأبحث لعيني أن تتملى حياء الماء.. كان الأصيل يعزف للأطيار الغريبة ألحان السكون، ولا شيء غير السكون.. فمن ذا قدير على الكلام الساعة، في هذه البحيرة العذراء؟.. وحدها دجاجة الماء الأبدة؛ كانت ترحل على طول النهر رفقة صغارها.. فخطر لي أن أسألها عنها. فمن يدري؟ ربما تكون سارية بين أدغال الشط الغربي، تعزف وحيدة على ناي من قصب الماء، ثم تصغي لصداه، ربما كانت تبث النسيم المسافر سر احتجابها.. انتهزت الفرصة، وسألتها بصوت يشبه البكاء:

ـ يا أنت!.. عفوا!.. أرجوك! سيدتي.. هل...

لم أكمل.. فقد غطست إلى الأبد هي وصغارها غطسة واحدة، وسكت عنهن الماء!.. وكأن شيئا ثمة لم يكن!

سادتي!.. يا خبراء الأدوية والأدواء! ها أنا ذا أخرج أشعث أغبر إلى الخلوة فردا.. أبيع قميصي المخروق لريح الصحراء، أخطو خلف عصاي على لهيب الرمل الممتد امتداد الأسى بفؤادي، راحلا نحو جداول السراب!.. قالوا هنالك تنبت أعشاب الشفاء.

فدلوني!

***

لم أكن أعرفها من قبل. أما أوصافها، كما عرفتها أول ما عرفتها، فمن حديث عمتي.. كان قصصها الدافئ يغمر ليالي الشتاء الطوال، أحلاما لا تنتهي أبدا.. كل ما قالته عن (الوَنجا) سيدة الجمال

الأبد، والغرابة الهارية؛ كان ينطبق على التي رأيت بعد!

عمتي ياسادتي كانت ـ على غير عادة نساء قريتنا ـ (قارئة). قالت: تلقت ذلك كرامة بين النوم واليقظة، عن جدها الذي مات قبل ظهور السيارات، والدراجات، وقبل انقراض الأسود الأطلسية من بلاد المغرب! ولها في ذلك قصص أخرى.. لم تتعلم على لوح كما تعلم الناس في زمانها؛ وإنما كانت (قارئة) وكفى.

حينما تمتد يدها إلى صندوق الكتب فتفتحه، كانت (الوثيا) تخرج من جوفه متدفقة في شعرها، الذي كان حجابها الوحيد، إذ ينسدل عليها، من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها! فتلف ما فضل منه على خصريها، وتلقي على كتفيها منه أخمرة سوداء. ثم تنطلق بين الأدغال البعيدة، تركض كالحلم بين أطياف النور..

كانت عمتي تسرد الشجا، وتحكي.. ويدها الناعمة تمسك في لين الشيخوخة مخطوطا قديما.. قالت: كان ملكا لجدنا الأكبر.. احترقت بعض أطرافه يوم اشتعلت النار في مخزن التبن بدارنا، فكانت الكارثة! صندوق الكتب وحده نجا بأعجوبة! وتلك قصة لم تنته بعد.. ثم رأيتها بعد ذلك في المنام.. كانت ليلة من أجمل الليالي في حياتي! ثم مرت شهور.. فرأيتها بعد ذلك في اليقظة! لست أهذي! هذه هي الحقيقة! فأنا لا أحكي لكم خيالا! ولا أوهاما.. هذا ما حدث بالضبط! فصدقوا أو لا تصدقوا!.. فإنما المهم عندي أن أحكي ما أهمني، وعذب سريرتي عشر سنوات كاملات!.. وفسروا أنتم كيفما شئتم! أنتم أحرار!

***

ألقى بي المقلاع في العاصمة موظفا صغيرا، بالوزارة.. لا يشك الناظر إلي أني بدوي قريب العهد ببساطته! فرغم قضائي أربع سنوات كاملات بالحي الجامعي؛ إلا أني مع ذلك لم أعرف من العالم الخارجي شيئا، فما كنت أتجاوز في علاقاتي أسوار الجامعة ومحيطها.. حتى كان هذا التعيين المفاجئ!

العاصمة تحتضنك الآن بهولها وعهرها!.. فاركض بفيافيها أيها البعير المبهوت بالكثافة والصراخ!

سكنت وصديقي عليا بغرفة على سطح عمارة.. كان مثلي جاء من فج عميق! بيد أنا مختلفان.. فقد كان من بادية الشمال، ما يزال يلعن الفقر وأسبابه بلهجة جبلية، تغص فيها الحروف والكلمات! وكنت من بادية الصحاري.. من جنوب الدنيا.. جمعتنا دراسة الأدب بالجامعة أولا، ثم اجتمعنا بعد في هذه الغرفة العالية.. نشرف منها على معظم مناظر المدينة.. غريبين، مشدوهين، متأملين، كفرخي مالك الحزين!

كان علي موظفا معي في الوزارة ذاتها، حديث العهد بوظيفته مثلي، ولكم كنا نعجب من الأقدار التي جمعتنا في العمل، وأغلب زملاء الطلب تفرقوا أيدي سبأ! لكن الأعجب منه أنها جمعتنا في هذه المدينة بالذات! ونحن نعلم أن تعيينا مثل هذا لا يكون عادة إلا بتدخل ذوي الألقاب والأعتاب!.. وأنى لمثلينا بذلك وكلانا منتوف الريش، قادم من هامش الدنيا!

نظرت إليه وقد انكمش في جلبابه القصير متكئا على وسادته

الصغيرة، وعيناه لا تفارقان وريقاته المرتعشة بين أصابعه، أتأمل هزاله ووجهه الشاحب.. فنظر إلي وكأنه أدرك مغزى نظراتي، فقال محاولا صرفي عن تأملاتي:

ـ إيه!.. ما أقرب اليوم إلى البارحة، ولكن ما أشد الفرق بينهما!.. الحياة بحر رهيب.. نحن الآن فقط نشرع في الدخول إلى غماره.. أليس كذلك يا محجوب؟

قلت ـ وأنا أنوي قلب الإشكال عليه ـ:

ـ وكيف ترى نفسك أمامه؟

ـ مترددا، خائفا!

ـ ولم؟

ـ ألا ترى هؤلاء الناس!.. غابة من الأدغال والأغوار!

هكذا كان علي.. طفلا وديعا بريئا.. يعيش ربيعه الثامن والعشرين! ذا فكر ديني، وإن لم يكن من أهله.. فما أذكر أني رأيته يصلي مثلا!.. بينما كنت على عكسه تقريبا، أسبح مع موجة اليسار مولعا بإيديولوجيات الثورة، الثورة ضد كل شيء.. ومن هنا كان الاصطدام القديم في الحي الجامعي!

استأنفت، وأنا أنتشي بلذة عميقة أشبه ما تكون بنشوة الانتصار:

ـ أما أنا فعاصفة شاقها تيه الدروب.. لطالما اختنقت داخل أسوار الجامعة!.. وددت لو أني أنطلق من قارورتي الساعة.. أكسر هذه الأبواب

العاتية، الشاهدة على أكبر زور!..

وحولت وجهي نحو النافذة، أرقب العمارات الحاجبة للفضاء،، ثم قلت:

ـ ها أنا ذا زاحف إليك يا هياكل الدخان، أكشف دجلك واحدا واحدا؛ حتى أعثر على موقد النار!.. ثم استدرت نحوه مضيفا:

ـ اختراق العاصمة في مثل هذا البلد، هو فاصل ما قبل (برجسون) وما بعده: لقد كنا قبلُ أبطالا خياليين، في رواية قُدر مصيرها سلفا. أما الآن فإننا نستطيع أن نسهم في كتابة فصولها، وصناعة أحداثها بالفعل!.. هذا حدسي!

تبسم في هدوء ساخر وقال دون أن يرفع إلي بصره:

ـ لغة النضال!.. فلسفة!.. ذلك عهد ولى.. كلمات سوف تنساها مع الأيام، بل لن ينفعك شيء منها لحل مشكلاتك المقبلة! أنصحك: ابحث لك عن وسائل أنجع! وتعلم لغة أخرى تنفعك!

وسكت.. لم أكن مقتنعا بشيء مما قال، فرغبتي في العصف كانت أكبر مما كان يتصور.. لكني فضلت إنهاء الحديث، حتى لا يتطور إلى شجارات الجامعة، فدماؤها لما تجف بعد!

لم يكن علي يرفع صوتا في خصامه ولا سكينا، ولكنه كان يهجر الخصم بصورة رهيبة: لا كلام ولا سلام الشهر والشهرين! بيد أني لم أستطع السكوت طويلا، فالسيل الهادر في قلبي أقوى من أن تحصره السدود!

استأنفت المعركة وحدي دون أن أشاركه.. جردت من خواطري نسخة منه، فقلت:

ـ أنت إنسان ضعيف! تبحث عن العيش.. أما أنا فإني أبحث عن الحياة!.. هذه أشرعتي ترتفع عاليا، فافتح صدرك يا بحر.. شوقي إلى الموج يندفع الآن أجنحةَ عطشى، تلفحها بالنار عاصفة اليباب!

***

كان المساء ممطرا، فالحديقة تسح الماء بأوراقها قطرات من أنوار شتى.. والوجوه ـ بين جلوس ووقوف ـ تعكس أضواء القناديل الذهبية المتناثرة هنا وهناك تحت مظلات النادي.. المحادثات هادئة إلى ما يشبه المناجاة حينا، صاخبة إلى ما يشبه الخصام حينا آخر.. كان علي يجلس إلى جانبي منقبض النفس، قال وهو لا يحول بصره عن شمعة واهنة الشعلة، تذوب فوق الطاولة حزنا بين يديه:

ـ أهذه كنيسة أم نادي؟

قلت في مزاح لا يخلو من الجد:

ـ لا فرق! ألا ترى؟.. الأضواء الخافتة، والموسيقى الساحرة، والشموع والقناديل والتماثيل والصلوات!

تبسم وهو يرفع إلي نظره العميق ثم قال:

ـ وصلوات؟

ـ نعم، ألا ترى؟ هنا رئيس المصلحة لا يفتأ يحني رأسه الغليظ ـ كل حين ـ لرئيس القسم؛ حتى تبدو رقبته الحمراء من تحت معطفه

الأزرق!

قال معقبا وقد بدأت ملامح وجهه تتحرر من تجهمها:

- شخصية غريبة.. لست أدري كيف يستطيع هذا الرجل أن يجمع بين عينين، يتطاير شرر الذكاء منهما! وبين شارب كث تثقله البلادة! يرى الأشياء قبل غيره، ويركع للرجال والنساء في ذل الإماء!؟

ضج النادي بالتصفيق فجأة!.. وقبل أن تتساءل عن السبب كان الواقفون يوسعون الطريق لامرأة دخلت اللحظة فقط.. كانت الألوان قد اشتعلت في كل مكان، وانطلقت التراتيم هامسة في خشوع.. هذه عطور باريس تجتمع الآن بكل عهرها.. تطلق ضحكات مغرية من خلال اللآلئ والفساتين الكاشفة المشتعلة! تاج المجون الأنثوي يعرض الساعة خطابه الشارح.. فاستمعوا له وأنصتوا.. يلعنكم الله!

وتنحني الرؤوس مبايعة في خضوع! وتتسابق الأيدي بالترحيب.. والكلمات تكشف عن عوراتها هنا وهناك!.. هذه الكلاب تتدلى ألسنتها سائلة لاهثة.. توصوص بأذنابها في تذلل المجوس..

نظر إلي علي مشدوها وعيناه تسألان في صمت؛ فلم أتركه في حيرته طويلا، وانحنيت عليه قائلا بصوت شديد الخفوت:

- إنها سيدة النادي!

- تعني صاحبته؟

- كلا! هذا نادي الموظفين.. ولكنها حاكمته!

- تكلم بوضوح فأنا لا أفهم شيئا!

ـ ولا أنا.. بلغة الإدارة: إنها الكاتبة! سكرتيرة السيد الرئيس!

ـ آ..؟ وكيف عرفتها؟

ـ لم أرها من قبل.. فمكتب سيادته في الطابق العلوي كما تعلم وأشغالنا مرتبطة بمرؤوسه في مصلحتنا: رئيس مكتبنا الصغير.. ولكنها أحاديث استقيتها موثقة من هنا وهناك.. كل التصرفات تؤكد لي أنها هي.. هي بلا نزاع: مرؤوسة شكلا في الإدارة، رئيسة فعلا في النادي!

ـ وكيف يركع لها الرئيس بهذ الذل أمام الجميع، ويوسع لها مكان الصدارة؟

ـ ألم أقل لك؟ إنها سيدة النادي! فالجميع يعلم هذا.. ذلك شرط الرضى إن كنت من العالمين!

ـ يا لك من جاسوس رهيب! أي شيطان هذا الذي يصنع طموحك؟

رددت وأنا أضغط على الكلمات فرحا بالانتصار:

ـ هذا أول الاقتحام، والبقية تأتي!

كانت الموسيقى تغير موجتها؛ مؤذنة بتحول ما.. ورغم أني أحضر الحفل لأول مرة، فقد أحسست ببقية الأحداث!

شهقت النساء، وانطلق الرقص حريقا يعصف بالغابة!

....

نظرت إليه من خلال اللهب، وقد بدا كالحطب القديم، يستجيب

للاحتراق من بعد! فسألته:

ـ أين أنت الآن؟

ـ في الخريف السابع من جهنم!

كان الدخان كثيفا نتنا لا يطاق.. وكان الاحتراق يعتقل الأشباح بتخدير رهيب.. رائحة أشبه ما تكون برائحة المطاط المشتعل في عجلات تفجرت في حادثة سير.. فكانت شواء سخيفا!

هذه أغصان الأجساد المنتنة تفوح روائحها الآن، فيختنق المكان!.. تتلوى في عنف الحمى، هائجة في جنون الشبق. يسيل العرق الأسود على الصلصال المختمر؛ فتفور رائحة العلق المسنون، وترفع الحمير رؤوسها بالنهيق! ثم تقضم ـ في شره مجنون ـ الفاكهة الحرام من هنا وهناك!

ها هو ذا الجسد يتكلم من تحت بَهِيمِيَّتِه السفلى.. هزة أو هزتان؛ وتنتفخ بطون الحمير بالزعيق!

كنا معا ـ أنا وعلي ـ نتسلق أشجار النار.. لكن بقدر ما نشعر بالعذاب الرهيب؛ بقدر ما نشعر بالرغبة المجنونة في الاستزادة!.. نتراءى لحظة، ويغرق أحدنا تحت الطبقات السفلى لحظات!.. تصادمت وجوهنا مرة بفعل الموج، فقال لي:

ـ كل الأوراق تسقط من جسمي الآن يا محجوب! كل الأفكار.. أسمعت؟ قلت لك: كل الأفكار: الخير والشر، والظل والحرور.. أنا الآن خشبة وكفى! خابية من ماء، وطين تعلن شهوتها للشمس؛ فتتبخر كل

الأشياء، ولا يبقى مني غير الفخار!

قلت:

ـ صدقت! هنا حد الخروج من الحد!

ـ أي حد؟

ـ الإنسان حيوان ناطق!

ـ آه! أحس بذلك.. غاب النطق فلم يبق إلا الحيوان!

ـ كلا!.. الحيوان يا مغفل لفظ شريف! فهو ـ عند أهل اللغة ـ صيغة تدل على الامتلاء، أعني الامتلاء بالحيوية والحياة!.. وذلك هو الإنسان. أما وقد فقدتَ ذاكرة الحياة؛ فاستبهمَتْ عليك الأسماء؛ فادخل إذن يا خاسر كهف البَهَمِيَّة الداجي!.. كُن بَهيمَةً ترعى مع الخنازير، وتشرب أبوال الحمير!

فتح فمه ليجيب، لكنه غاب فجأة خلف الدخان، وأنا أمامه أشرب من لهيب ساقية الخمر: الحاكمة العليا!

***

سيدة النادي ما تزال تمعن في جلد العبيد.. والظهور عارية راكعة تستلذ عذابها.. والسياط متواترة اللفحات.. أما علي فقد غابت ملامحه تماما في معركة الدخان! وأما أنا فقد أبت علي وثنية المكان أن أنام.. كانت رغبتي لا تزداد إلا حرصا على السفر إلى آخر طبقات النار!.. فها يداي تدفعان الأخشاب المشتعلة، وتزيحان عني أمواج

الحميم.. مررت بالعتمات جميعها: النار الحمراء، فالسوداء، فالزرقاء، فـ... فكان أن رأيت باب الجنة!.. وتذكرت!



كان بستاننا ربيعي الأريج.. وكان النهر القريب ينساب في سكون، فتنبعث منه رائحة العشب والطين. كل الشجيرات كن ينشرن غدائرهن حالمات بالذي يأتي أو لا يأتي.. هذه سيدة اللوز كانت وحدها دوحة عظيمة .. والباقيات صبايا مشمش، وإجاص، وبرقوق. كلهن مزهرات ساحرات؛ احتفالا بشمس أبريل الجميلة. وعذارى لوز شاردات هنا وهناك في كل الأركان.. داليتان اثنتان فقط كانتا تتنافسان في إبداء أجنة العناقيد المزهرة، وللنحل بين خمائلهما طنين لا ينتهي أبدا.. كانت إحداهما قد عانقت نخلة قديمة فحاصرتها برفق حتى لتكاد خضرتها تغطي كرنافها البني تماما.. فلا يدرى بم تسلقت هذه الدالية الطموح، لولا أن الجريد قد مد سعفه الأخضر في الفضاء عاليا يحضن أعشاش اليمام العامرة، ويميد بها في الريح الهادئ، وللهديل بين يديه انسياب القصيد!

أما الأخرى فكانت تغطي صف الرمان عودا عودا! فلا تسمح بالظهور إلا للجلنار، ينشر حمرته الصارخة من تحت أوراقها الخضراء.. فلا يبدو إلا وكأنه زهرها لا زهر الرمان!

هناك في ذاك المساء الغريد .. كانت رؤيا اليقظة! وهل ثمة فرق بين اليقظة والمنام؟ ألسنا أيقاظا ونحن رقود؟ وإلا فكيف يتبرعم هذا

الوعي فيك.. ثم يتلاشى؟ أين كان قبل ذلك ثم أين ولى؟

المهم يا سادتي.. أنها تجلت الآن في هذا الوعي الذي تعرفونه جميعا .. هذا المدرك بغير تأمل.. تجلت مساء ذلك البستان.. فكان الذي كان!

كان أن أبصرت مخطوط جدنا الأكبر يتشكل تلال رمل معشب، تتحرك في الجاهي بدلال. حتى إذا كان الأريج قاب قوس أو أدنى؛ تموجت التلال ماءً زلالا ..

كانت مواكب الطيور من هديل، وصفير، وتغريد؛ ما تزال تعمر البستان بالحياة.. وكانت الظلال تميد هادئة في رضاب الأصيل.. أين أنت الآن؟ هذا وقتك يا مجنون فادخل مقام الشفاء! .. كبدك المقروحة ترتوي الساعة من ماء (مَدْيَنَ) فتورق الحياة! فلم تزل وأنت طفل صغير تسف صهد الجدب في صحراء لاهبة الفصول.. ما سمعت قط كلمة حب من أبويك ولا من إخوانك! ولا من كل محيطك القاسي!.. قلوب هؤلاء الناس غائرة رهيبة كجحور الصخور الناتئة خلف هذا الوادي.. تسكنها الأفاعي والضُّباب!

البستان وحده كان متنفسي الوحيد!.. أحببت اليمامة حتى بكيت لحنانها.. صادقت العصافير كلها.. تعلمت منطقها السري، فأدركت منه لغات فاتت فريد الدين العطار!

لقد صاحبتها واحدا واحدا: (ابن جُحَار) الشديد السواد، ذا الغرة البيضاء، المهرقة على صدره الصغير .. (الجَحْمُوم) الأسود البهيم، الفخور بمنقاره الأصفر الفاقع.. (السطَّيح) الحناوي اللون، ذا الذيل

الطويل إلى ما يوازي طول جسمه، لكنه مع ذلك غير كث ولا كثيف، فما هو إلا ريشتان أو ثلاث، يرقص بهن مزهوا على كل غصن وفوق كل طلل!.. و(الطُّيَيْرُ الأخضر)، عدو النحل اللدود، جماله يقبض من ألوانه المتآلفة، في رهبة الماء الحامل كل الأطياف القزحية.. خضرة غالبة لكنها لينة كالحرير، مستريحة كالهواء.. صفرة نابعة من بين ثناياها عينا تتدفق بالسحر،ثم نفحة من حناء تمس الحوصلة الصغيرة! ولعمري لست أدري لماذا يلقبه أهل القرية (طويْرُ اليهود)؟ ألهذا الجمال؛ أم لأنه لا يترك من النحل خلية إلا أخلاها!؟ والنحل يا سادتي عندنا أمة صالحة من الصديقين!

... كانت تقبض إكليلا من الشيح المزهر بيد، وترفع بأخرى خميلة الرمان عن وجهها.. ومن تحت إزارها الأسود الغامق الذي يحجب كل أغصانها كانت تخرج الهداهد تترى.. فتستقر على أفنان اللوز غير بعيد.. آهٍ منك يا هدهد! أي خبر من أخبار المعمور تحمل الآن؟ وأي تحدٍّ تلقي علي الساعة؟ أما أنا فلا طاقة لي بتحديك الجميل.. هذا جناحي كسرته عواصف الصحراء.. وأما ملكة سبأ فها هي ذي أمامي شاخصة، تسوق النسيم بفساتينها.. عرشها هو خميلة الرمان المحتفلة ببهجة الجلنار، والهداهد لها تيجان.. ما أبهى غصونها المتشابكة أقواسا أقواسا في انحناءات لا تعرف لها بدءا ولا منتهى! محمية في عزة الحرائر بنخلتين رفعتا إلى الفضاء أشواكها في كبرياء!

كنت مثل طير ألقت به الريح بين الدوح منتوف الذيل، فلا هو يقوى على تحديد الاتجاه، يطير حتى يصطدم بشيء فيسقط ليستريح!.. رأتني وقد علق قميصي الممزق بأشواك المشمش الدقيقة! كنت أحاول فك

احتفالي فتوقفت!.. كان الحياء رجفة خفيفة ينشر لون الاعتذار في فضائها؛ احتقانا جلناريا حتى قارب الانفجار!.. قرأت فيه حزن ملاك أخطأ طريق العودة إلى عالم الملكوت!

ما كادت دهشتي أن تنطق: من؟ حتى ولى التجلي هاربا بين الظلال!

نبض النجم الشاهد فجأة ينثر ذرات الفضة في لون الرماد.. يشهر أفول النهار في الآفاق.. وَيْ! جداول الغروب تصب في منتهاها؛ وأنا لم أزل في مكاني مشدودا إلى أطياف المكان الذي كان! أسأل في ذهول:

ـ من؟ من؟

انفجر صراخ يجيب من ورائي:

ـ أما زلتَ هنا يا محجوب؟

وفي أقل منْ خطفة الخاطر أدركت أنه أبي!.. ويحي!.. اندفعت إلى أمام بقوة البارود ـ ناسيا أنني معتقل بين أغصان المشمش ـ فقُدَّ قميصي من كل الجهات؛ وفررت تاركا ورائي حيرة بضيع الدليل فيها بين أمارات الصدق والكذب!

التفت إلى علي في غمرة الأمواج.. صرخت أشق ضجة الموسيقى حتى أسمعه جيدا:

ـ كل عظيم من ورائه امرأة!

نظر إلي بعينين مثقلتين مخترقا هو أيضا مجال الصوت:

ـ حكمة بائرة في مثل هذا النادي!

ـ بل هنا تحققت عندي لأول مرة في التاريخ! سيدة النادي هذه يا أحمق هي مفتاح النجاح لكل الموظفين! وهي سبب الهلاك لهم أيضا.. فبيدها مفاتيح كل شيء! هي التي صنعت عظمة السيد الرئيس.. لو سخطت عليه لما بات في منصبه ذاك ليلة واحدة!.. بسمتها، إشارتها، عبارتها، كلماتها هن مدرجات السلم الإداري للترقية السريعة! وبالجملة يمكنك اختصار الأسرار والأخبار في معادلة واحدة: الإدارة هي السكرتيرة!.. عبر أصابعها تمر جميع الملفات! هذا هو التفسير الواقعي لحكمة الدكتورة نوال السعداوي: الأنثى هي الأصل!

سكت قليلا، ثم سألته بنوع من التحدي:

ـ هل رأيت عظيما في حياتك لا يحتجب خلف سكرتيرة؟

ـ أما عظماء المناصب والكراسي فلا.

ـ ومن العظيم الساعة غيرهم؟ أليسوا هم الذين يحملون الأرض اليوم بقرونهم!.. أما العظماء عندك يا علي فهم قوم آخرون.. ربما يحسن أن تسميهم تسمية أخرى.. أما هؤلاء فهم السادة، هم أهل الحل والعقد في هذا الزمان. هذا واقع لا ينكره أحد.. لكن الطريف يا صديقي أني رأيت أنا بأم عيني أحدهم ـ وكان في منصب سام ـ لم تكن له سكرتيرة بل سكرتيرا! أعني رجلا!

ـ هذا مستحيل!

ـ بل حقيقة!

ـ كيف، وها إن السكرتيرة هي الأصباغ واللحاظ والصوت

الرخيم؛ كيف تُمارَس السكرترة إذن؟

ـ أتفق معك تماما.. لكنك تستعجل.. لِمَ لمْ تسألني عن ذلك العظيم من يكون؟.. وقبل أن يتكلم استأنفت:

ـ لقد كان امرأة! ولذلك اتخذت رجلا!.. ولكن لم يكن بيده شيء.. لأن أنوثتها كانت ناطقة بكل شيء! فكيف تتخذ لنفسها كاتبة تتحدى أنوثتها!؟

ركز عينيه في المجهول، وصرخ بما يشبه الاستغاثة:

ـ يا لحقوق الرجل!

وجحظت عيناه فجأة.. فإذا القيء يفرعه بقوة، وبداه تشيران إلي وكأنه يستغيث.. خرجت به معتذرا أشق نثانة الزحام.. والضحكات الساخرة ترجمنا من كل مكان!

كان المكان صخريا موحشا. فالليل قد انتهى إلى ثلثه الأخير ، وأضواء المدينة تبدو من البعد باهتة.. نظرت يمينا وشمالا فلم أر شيئا.. لا أثر للحياة! لا حافلة ولا سيارة أجرة.. كل شيء انتهى الساعة.. كان العياء قد حطم كل ما بقي في علي من قوى.. فانهار إلى الأرض متمددا! شعرت أني في ورطة حقيقية.. ولم أدر كيف رفعت بصري إلى السماء.. كانت الصخور ترتفع عاليا؛ لتشكل جبلا صغيرا يسند ظهر النادي.. كان لابد أن أبحث عن إغاثة، فاتجهت إلى الجبل صعودا..

هناك على الجهة الأخرى، شلال تابع من بين الأحجار، يتدفق على منبسط ذي شجيرات، ترقد خلفها أشباح قرية صغيرة، نائمة في هدوء..

أبصرتُ نورا خافتا يخفق أسفل الشلال، نزلت نحوه أتدلى بصعوبة بين مسالك الصخور.. كان الماء قوي الوقع على الأرض، يغمر صخبه فضاء المكان. اقتربت من المنزل الجاثم على بضعة أمتار، حيث مصدر النور الصغير.. وضعت أذني على ثقب في الباب الخشبي.. كانت الأصوات تشبه أن تكون أهازيج مريدي طريقة صوفية، ترتفع إلى سمعي ضعيفة، في نغم متدفق رقيق كالنعاس!.. طرقت الباب صارخا:

ـ النجدة! النجدة!

***

كان الشيخ يمسح رأس علي بالماء وهو يقول:

ـ هذا الشلال سيل مبارك، لا يستعمل لداء إلا عالجه بإذن الله! والماء عموما طاهر مطهر يا ولدي!

أما أنا فكنت أتلى تعابير الشيخوخة الهادئة في وجهه حينا، وجمال النظرات الناعسة في عيون المريدين حينا آخر.. سألت أقربهم إلي في خجل شديد:

ـ ما اسم هذه الزاوية؟

ـ الشلال.. هذا اسم الشهرة.

أما اسمها الحقيقي... وكأنما صفعني إذ ذكره! لقد شعرت بالخوف.. ربما من أبي .. لست أدري.. فقد كان يخيل إلي أنه يناديني بصوته المنطلق كالرصاص! فهذه زاويتنا! ولكني ما ذكرت بُعد المسافة حتى عاد إلي اطمئناني.. وسرحت في تأملاتي: عجبا! كيف يمكن

للخرافة أن تخلق كل هذه السكينة في نفوس المريدين؟ أي سحر ذاك الذي يمارسه الشيخ فيقنع الناس بفقرهم وجهلهم البليد؟

وارتفعت أمام عيني رقصات (العمارة) في بيتنا القديم.. فرأيت شيخ أبي يلهث وسط حلقة من الفقراء، وهم يركزون الأرض وقوفا، ويصيحون صياحا مزعجا، كأنه النباح: حي!.. هو!.. والشيخ يدور وسطهم على نقطة واحدة، يضبط لهم ميزان الصوت بيديه..

عجبا!.. أي تعبير بدائي هذا الذي يغري النفوس ويطربها إلى حد السكر؟

***

2.

ودبغتنا الوظيفة يا سادتي الكرام.. تدور كما تدور الأشياء في برودتها البليدة.. أما علي فقد وجد ذاته في هذا الفلك: يقضي ليلة آخر الأسبوع في النادي، يشرب ويرقص، حتى إذا كان نصف الليل الأخير؛ انتقل إلى الشلال يستقيئ في مائه، ثم يرقص في زاويته حتى الثمالة.. ويظل الغداة نائما بها كالجيفة حتى آخر النهار! ثم يؤوب إلى المدار!

أما أنا فلم أستقر على حال.. كان هاجس البحث عن الحظ يؤرقني.. أغشى النوادي كلها.. أخوض البرك الآسنة، والبحيرات المنتنة.. اكتشفت أن لكل مكان سيدته.. وأن لكل نار كاهنتها. وأن لكل كاهنة عبدة وأتباعا! وترقيت في وظيفتي عبر السلم السريع.. بواسطتها وبواسطة غيرها.. وبقي علي برزخ في مكانه! لم يكن المسكين يتقن طرق الأبواب، كان غبيا يؤمن بالجدية في العمل، وفكرة المواطن الصالح بين عصابات المافيا! الشيء الوحيد الذي كان يؤرقني هو أنفي! أعني كبريائي، لكن سرعان ماكنت أتغلب عليه وأمرغه في التراب!.. فقد كنت يا سادتي من قبيلة بني أنف الناقة التي مدحها الشاعر الجاهلي الأعشى صاحب البيت المشهور:

هم الأنف والأذناب غيرهم ** ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا؟

ولكن ما قيمة أنف يشمخ عاليا في كبرياء السنبلة الخاوية، وهذه الأذناب قد احتكرت كل شيء، وتقلبت في النعم كيفما تشاء؟.. كانت

ثقافتي النضالية القديمة؛ تمكنني من التفسيرات البراكماتية الكافية لإسكات وخزات الضمير! فأستريح إلى حكمتي الذهبية: كل عظيم من ورائه امرأة.. ولقد رأيت ـ وليس من رأى كمن سمع ـ أن قرارت العالم إنما تتخذ بين شعابها الأربع!

كان جملي يركض في كل مكان، حتى إذا دب الملل إلى قلبي؛ عدت إلى نادي الموظفين.. وربما بت بالزاوية صحبة عليّ مضطرا.. كنت اجتاز الحاجز الجبلي مشيا على أربع!.. ولقد كانت عقبة كؤودا.. فاصلا يفصل بين عالمين.. كلما وصلت إلى ذروة الصخور وقفت متهادي الأغصان، ثم التفت إلى وراء أنظر إلى النادي القابع في السفح. لا تفتأ مدخنته تنفث الظلام في الظلام!.. وأستمر برهة أتأمل الدخان، كانت سيدته الحاكمة بأمر النار تذكرني في هذا الفضاء الليلي بسيدة البستان! ويهب في قلبي نسيم الأمل جامحا!.. عجبا ! كيف يذكرني الشيطان بالملاك؟ ثم ألتفت إلى أمام أنظر إلى الجلال والجمال الذي يتدفق عبر الشلال فيملأ فضاء القرية بالندى.. وأتدفق مسرعا مع الماء!

سألني الشيخ ذات سَحَر:

ـ ما اسمك يا ولدي؟.. من أنت؟

ربما لأنه لاحظ انطلاقي مع الفقراء في إجادة السماع حفظا وأداء، ذلك القصيد الذي يعتبر أهم كؤوس الطريقة!

أجبته بكلمات تكفي لإرضائه، لكن الجذب فاض بين جوانحي بسيل قرار.. فتدفق الحنين بفؤادي بدافع بكاء طفوليا، ذرعني دون سابق إنذار! وشرعت في إلقاء محاضرتي بقاعة الأستديو. كانت الأضواء

تتزاحم للكشف عن حقيقتي.. رجال الصحافة، وآلات التصوير، وشركات الإشهار.. عالم من مردة الكذب وعمالقة التزوير.. ربطت جأشي، وانطلقت في الحديث:

كان اسمي أيها السادة ولم يزل هو المحجوب، كما أنتم تعرفون الآن.. لكن لا أحد كان يدعوني به في طفولتي إلا معلمي! أما الناس كل الناس فقد كانوا يدعونني المجذوب! ولذلك قصة. فقد كنت محافظا على أوراد الطريقة زمانا من طفولتي! حتى أبي نفسه رضي لي هذا اللقب، وإن لم يكن يناديني به، والحقيقة أنه لاقى هوى في نفسه! لأنه لا يخرج عما توخاه من تسميتي.. فالمحجوب سر عرفاني مستور عن عامة الناس بحجب الله، لا يكشفه إلا من دخل مقام الكشف والتجلي.. والمحجوب محفوظ بحفظ الله الخفي، من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامّة.. هكذا قال الشيخ رحمه الله!.. أنت محجوب إذن أنت مجذوب! مجذوب إلى النور العلوي، ولا إرادة لك في ذلك، فإنما المجذوب اسم مفعول! ولذلك لا اختيار لك - من دون العامة - فيما تفعل؛ لأنك لا تصدر في تصرفاتك عن إرادة، فأنت مجذوب!..

ونفعني هذا اللقب - رغم كراهتي له - في تسويغ كثير من أخطائي الجميلة! سرقة العنب أو الرمان في الجنات والبساتين، أو سرقة البيض في خم الدجاج!.. فكل واشرب هنيئا لك بما سرقت يداك، فإنما أنت المجذوب!.. وتقدمت بي مراحل الدراسة يا سادتي، فطغى اسمي على لقبي، ولم أعد أسمع من يناديني به إلا قليلا!

لن أطيل عليكم سادتي الكرام.. فاعذروني!.. فإنما هي كلمات لا بد منها كي تفهموني جيدا عساكم تساعدوني في علاج قضيتي!.. هذا

رجائي ولولاه لما حكيت! ولبقيت قصتي سرا من أسرار المحجوب إلى يوم القيامة!..

نعم سادتي.. فتحت عيني بمنزلنا المبني بالتراب بقصر من قصور واحات الجنوب، هناك بتافيلالت.. لست أدري لماذا سموها قصورا؟ فإنما هي أشبه ما تكون بالحصون: مجموعة من الدور الترابية، تتقابل أبوابها في صفوف من الدروب المسقفة بجريد النخل وخشبه. فضاءاتها مظلمة ليل نهار، فلولا حلقات صغيرة تتخلل السقوف هنا وهناك؛ يتسرب منها بعض الضوء نهارا؛ لما أبصر أحد من المارة فيها أحدا!.. وتتقابل الدروب هي أيضا متفرعة عن الزقاق الكبير، الذي هو عمود القصر.. يبتدئ بمدخله الوحيد - وهو عبارة عن قوس عظيم، ذي باب خشبي غليظ - وينتهي بالسور المحيط به من كل الجهات، على هيأة مستطيل كبير.

هكذا تقف القصور شامخة، محصنة بأسوارها وأبراجها الأربعة، بين تلال الرمال، أو بين غابات النخيل، أو بينهما معا.

لم يكن يوجد ساعتها في المعمور شيء غير ذلك الجنوب ثم الغرب!.. لم يكن لنا هناك (شمال) بعد! نعم سادتي كنا جنوبا وكان الغرب - ولا يزال - نقيضنا. لم يكن غربا بالمعنى الجغرافي ولا السياسي للكلمة. ولكنه في الحقيقة كان شيئا منا، كان شمالا غربيا إن أحببت الدقة. إنه بالذات عالم المدن، يبتدئ بمدن وسط الوطن، ثم يتسع ليشمل كل غربه وشماله، بل وبعض جنوبه الغربي!.. أليست ثمة مدن؟ إذن يكفي لتكون آتيا منها فيقال لك: (غرباوي!). بل يكفي أن لا تتكلم بلهجتنا ومنطقنا؛ لتكون كذلك. ويكفي أيضا أن تأتي المرأة بغير إزار

فتكون (غرباوية). وإنما قلة الحياء شيء زحف إلينا من الغرب!.. هكذا كان مفهوم (الغرب) عندنا وما يزال. ولذلك كان في الدنيا المسلمون، ومسلمو الغرب!

كنت أصغر إخوتي السبعة: ثلاثة ذكور وأربع بنات.. أما أبي ففلاح بسيط، لا هو من أغنياء القبيلة ولا من معدميهم.. حينما بلغت سن العاشرة؛ لست أدري كيف فكرت في المدرسة!.. سرقت لوحا وطبشورا فذهبت مع التلاميذ هكذا!.. كل إخوتي الكبار كانوا من نصيب الأمية؛ لأن العمل بمزرعة النخيل كان قدرا ينتظر كل ذكر تلده أنثى بهذا البلد.

أحمد أكبر إخوتي، كان نسخة من أبي تماما، يشبهه في جهله وحلمه.. أما الصديق فشاب عربيد، رغم انهماكه في العمل طيلة النهار بالحقل؛ فإنه كان يقضي أغلب الليل بسامر القرية، يدخن (الكيف) مع الشباب.. ذلك المخدر الخفيف الرهيب، الذي كانت له عندهم طقوس من السمر، والحكمة - زعموا - فلا ينفض جمعهم إلا بعدما يبصر الواحد منهم من صاحبه ثلاثة أطياف أو تزيد! .. أما المهدي فكان أقرب إخوتي مني سنا، لا يفوقني إلا بسنة ونصف، فكأننا فرسا رهان! ولذلك تشاجرنا حتى استُيئس من تصالحنا، ثم تحاببنا حتى ظُن أن لن نختلف أبدا.. وذلك ما كان!

وأما الأخوات فقد تواتر زواجهن مبكرا؛ فرفعن رأس أبيهن عاليا في فضاء القبيلة!

***

حينما أدخلت نفسي إلى المدرسة الوحيدة في القرية، لم يعلم بذلك أبي حتى افتقدني في المزارع أياما. لم يكن يلزمني بأعمال كثيرة، فقد كنت الأصغر، والثقل كان على الآخرين!

ضحك مني ذات مساء، وقال:

ـ ذهبت إلى ركن الغش!؟

فاستدركت عليه أمي متلطفة في دهاء:

ـ هذا آخر الأولاد، فلم لا تتركه يتخذ له طريقا آخر؟ ثم أنت نفسك كنت نذرته لله! منذ أن كان في بطني، ألا تذكر؟..

فرد عليها باقتضاب:

ـ أنا نذرته للزاوية لا لمدرسة النصارى!

وباختصار يا سادتي الكرام.. قبل أبي التقسيم الذي مارسته، فقد وزعت نفسي عليهم جميعا، كل حسب حاجته!.. بدءا بحفظ القرآن على فقيه الجامع، أعني الإمام. وقراءة أواخر الأذكار مع الفقراء بالزاوية، فالذهاب إلى المدرسة، ثم المساعدة في عمل الحقول، خلال عطل نهاية الأسبوع، والدورات، والصيف.

أحضر من حصص القرآن بالجامع ساعة ما بعد الفجر حتى الشروق.. وفي أيام الصيف حيث تطول الفترة الصباحية، أنصرف قبل الشروق بقليل، كي ألتحق بالزاوية مباشرة، حيث أجد أبي جالسا في صف من (الفقراء) فأجلس إلى جانبه، أتلو معهم آخر الأوراد. فأفوز بدعاء الختام.. ثم أقبل يد الشيخ، وأنصرف مع والدي إلى المنزل لتناول

طعام الإفطار: التمر والحريرة أبدا!

كان الفقيه يعتلي مصطبته على سطح الجامع كل صباح، يصحح الألواح، ويملي على (المرتّبين)، وهم شباب نزحوا من القرى البعيدة إلى هنا ليتفرغوا لحفظ القرآن. وربما خرج الإمام لحظة لقضاء حاجة ما، أو إجابة سائل ما، فيشير على أكبرهم ليجلس مكانه، فيستولي على عصيه الثلاث: الطويلة والمتوسطة والقصيرة. فلا رأس منا تخطئه إحداهن!

لقد كان مُرَتّبا بغيضا، جاء من قرية أخرى بعيدة.. أهلك أهلها الجوع، فجاعت قلوبهم! ثم عرضه الفقيه ـ كسائر المرتبين ـ على الناس في المسجد حتى يوزع أيام الأسبوع على المتطوعين منهم لاستضافته.. ويرتب الأيام عليهم واحدا واحدا.. ولذلك كان «مُرَتّبا»؛ فيدور الأسبوع على مائدته بشتى أنواع الطعام! مرة يأتيه، ومرة يؤتى به! وقمه لا يفتأ يوزع دعوات الخير على أهل الرتبة، لكنه لم يكن يتورع من توزيع دعوات الشر أيضا بسخاء كبير ـ كلما ولى، أو ولوا هم مدبرين ـ إذا ما كان الطعام هزيلا أو رديئا! وكم من صبي نال على يديه ضربا شديدا عند نيابته عن الفقيه، لا لسبب إلا لأن طعام أهله كان قليلا! فيصبر الأبوان على ذلك إذا وصلهما الخبر ـ وقل ما يصل ـ فهما قد وكلاه بتعليمه ـ بعد الفقيه ـ على كل حال! وربما حسبا أن ذلك الضرب جزء لا يتجزأ من عملية التعليم!

فكم تكون راحتنا إذ يعود الفقيه إلى منصبه، ويعتلي عرشه مطيحا بذلك الملك المزيف؛ فيطيح بذلك غروره وظلمه! وربما كان ضرب الفقيه أشد حرا على جلودنا، لكن ذلك يهون أمام كبر سنه وعدله!

حتى إذا انتهت حصة القرآن؛ تسابقت مع الأطفال إلى السطول الخشبية الصغيرة، نملؤها من البئر ثم نشرع في مسح الألواح، أو بالأحرى غسلها!.. وينصرف الضجيج والعجيج..

ثم يكون النهار بعد ذلك للمدرسة!

لن أطيل كثيرا ساداتي الأفاضل.. فمعذرة! محاضرتي سيرة ذاتية عادية، يمكن أن يكون عاشها أكثر من إنسان.

كان المعلم ينظر إلي باستغراب..لم يكن من أهل البلد فهو رجل غريب جاء من الغرب . هكذا كانوا يقولون .. عيناه زرقاوان ووجهه أبيض مشرب بحمرة .. يتكلم بلكنة مختلفة.. مما رسخ في ذهني أنني فعلا أدرس بمدرسة النصارى! ـ رغم أنه كان مغربيا مسلما ـ مرة سألني:

ـ ما هذا البياض الذي يملأ جبهتك وظهر يديك؟

فأجبت:

ـ إنه الصلصال! الصلصال الذي أطلي به لوحتي في الجامع!

ـ وأي شيء هذا الذي يلتزق برأسك؟

ـ إنه الصمغ.. المداد الذي أكتب به لوحتي!

ـ ولماذا تضعه في رأسك؟

ـ ليس أنا من وضعه! بل سيدي.. الفقيه هو الذي يمسح قلمه في رؤوسنا!

ـ ولماذا؟

ـ حتى تحفظ جيدا!

كنت أرى الاستغراب ممتزجا بالإشفاق في وجهه، لكنه كان يحترم كل مراسيم الحياة في القرية!

وبعد حصة المساء المدرسية يكون بين العشاءين موعدي مع الجامع واللوح الخشبي! حتى إذا صلى الناس العشاء الأخيرة وانصرفنا؛ كان آخر واجباتي أن أورد الحمار الساقية.. يشرب ثم أعود به في الظلام الدامس، أخترق أزقة القصر، منبها أشباح المارة بصوت مرتفع كالزعيق:

ـ با... لك!.. با... لك!.. وا.. بالك!

أمدها مدا يخفي رغبة مجنونة في أن أدوس أحدا!

***

كان أبي هو الذي يصنع شاي الليل.. حيث الأسرة كلها مجتمعة بين يديه، فذلك هو دليل قيادته!.. أحمد أخونا الأكبر نفسه لا يمكنه أن يتطاول على صناعة الشاي إلا عند غياب أبي .. وما كان يغيب إلا لوليمة عند أحد الأعيان، أو لقضاء ليلة مباركة في الزاوية!

كان يجلس على فروته المقلوبة، يضم إليه رجلا ويمد أخرى على حصير قديم تمزقت حواشيه.. حتى إذا أشرف على ملء الكؤوس رفع رأسه شامخا، وبرقت عيناه بنشوة الانتصار..كان ذلك عرشه الذي لا ينازعه فيه أحد!

عشاؤنا كان هو الوجبة الغذائية الرئيسة، التي نجتمع عليها.. فالحقل يستغرق كل النهار لإخوتي، يخرجون إليه بعد الفجر ولا يعودون

إلا بعد الغروب!.. أما أبي فيلتحق بهم عند الضحى أي بعد إفطاره مباشرة.

كان طعامنا فلكيًا أيها السادة، يدور مع دورات الفصول! اللفت والجزر طيلة فصل الشتاء، فإن لم يكف أتممنا الفصل ببعض خضر الصيف المجففة!.. الفول الأخضر طيلة فصل الربيع.. الملوخية والقرع بشتى أنواعه لمرق الصيف!.. أما الخريف فبعض ما تجود به الأشجار القليلة من سفرجل وإجاص أو بعض مجففات الصيف ريثما يدخل خضر الشتاء!

ذلك طعامنا الجميل برتابته، نتخذ منه مرقا لا يشرفه اللحم إلا يوم الأربعاء، يوم سوق البلد، ونحمد الله أنا أحسن من غيرنا بكثير ممن لا يشمون اللحم إلا عند عيد الأضحى! أما الأغنياء المعدودون،فهم يشتركون في توزيع الجزور كل يومين أو ثلاث.. لهم من الخضر كل جديد وغريب، فبالإضافة إلى فول الناس وقرعياتهم؛ فقد كانوا ينتقون من خضروات الغرب أصنافا غريبة عنا مثل البطاطس، والفصوليا.. وربما لحظي إذا حضرت وليمة عند أحدهم فأكلت البطاطس!

***

كلهم كانوا يخوضون في حديث الزراعة ومشكلاتها، لكني وحدي أغرق في تأمل مصباح النفط الموضوع على الطاولة الأرضية، القابعة أمامنا على ثلاث قوائم فقط، تئن في استضعاف ظاهر تحت عامل القدم والهرم.. فأمي لا تفتأ تذكر أنها من جهاز أبيها لها في زفافها قبل سبع وثلاثين عاما!

هذا المصباح النفطي كان وحده هو الذي يخطف عقلي، فأدخل في شرود لا يقطعه إلا أحدهم إذا أخذه دون سابق إنذار.. يغيب به لحظات لإجابة طارق، ربما جاء، يحجز يومه لاستعارة خدمة أحد إخواني، أو خدمة الحمار! أو خدمتهما معا .. أو ربما يغيب به ساعة كاملة في المرحاض! لحظتها فقط أعي موضوع الحديث الدائر بينهم، فأتابعه مؤقتا ريثما يعود النور..

كان ذلك المصباح يتيح لي الدخول إلى عالم ساحر، تتوالد به الغرابة تجليات لا تنتهي، فأنتشي بأجواء تملؤها بهجة الاحتفال!

هذا الفتيل الصغير المغموس أسفله في النفط، يتسرب إلى قاع المصباح حيث يغطس بقارورته الدائرية الشكل، ثم يمتد أعلاه عبر ثقب أشبه ما يكون بعين أسطورية نارية، حيث يرتفع لهب صغير على رأس الفتيل، يقوى ويضعف حسب علو طرفه الخارج من الثقب .. ويشمخ اللهب الضئيل رافعا إلى أعلى .. لا يميل يمنة ولا يسارا! بفضل الزجاج الذي يحتضنه بحنو جميل!

يا له من مصباح عجيب! يشتعل قلبه نارا .. فيفيض النور حواليه خيوطا واهنة في كل اتجاه.. اللهب ذهبي اللون على رأس الفتيل، ينتهي بجمرة رقيقة كالخيط، ترمي بشرر دقيق بين الحين والحين .. هنا الاحتراق؛ هنا ألم الاشتعال. نار، فنور .. وتفيض الحياة!

كان الشعاع أفقيا إلى اليمين، وآخر مثله إلى اليسار، ثم تتوارد الأشعة تتهادى غدرانا تموج بعضها فوق بعض إلى أعلى، حتى تحد بقية المصباح الحديدية المنتصبة فوق ساريتين، تنطلق قاعدتهما من قارورة

النفط السفلية !

أبدأ بالشعاع الأفقي الممتد بيننا .. الروح تتدفق الهوينى، فتنبعث الحياة في صور التجليات .. هذا خيط النور يتشكل الآن صفوفا من جيوش سيف بن ذي يزن، معارك ومواقف وجواري وقصور، وجن وإنس، ولغط كثير.. صور تترى فتمضي .. فإذا صهيل فرس عنترة يشق سكون الصحراء! يعقبها صراخ الفارس الأسود، وترتفع الفرس بصدرها في الهواء ضابحة، ويخرج رسول بني عبس ليلقي الخبر الصاعقة: لقد أسرت عبلة!.. ويشتعل اللهيب!.. ثم تتابع الصور حية لا غبش فيها ولا مراء!.. وتمضي الحياة متدفقة حتى زمن البعثة الإسلامية، فتنتشر الفتوح في كل مكان: هذا خالد وهذا علي، وهذا سعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح.. وما تزال النار تتراقص نورا أبصر به كل معارك الدنيا وأخبارالمجانين: ديك الجن، وقيس بن الملوح، وعروة بن حزام...

حياة كانت.. بيد أني أقسم لكم أني كنت عليها شهيدا!.. أبصرتها بكل جوارحي.. أنتشي بالانتصار، وأضمر الثأر عند الهزيمة، آسى على المجنون إذا انطلق في الصحراء هائما على وجهه.. وربما دللته على الطريق إلى واحة أو دير، لعله يجد من يسقيه شربة تطفئ النار في كبده!.. صور راكضة لا أضام في رؤيتها شيئا.. أين منها ما يشاهده رواد المسارح والسينما؟!.. فهؤلاء إنما يشاهدون تمثيلا وتقريبا.. أما أنا فأشاهد الحياة!.. إي نعم!.. الحياة كما هي بغير زيف ولا حجاب!

هكذا بدأت قصتي مع الإبداع!.. وهكذا ولد هذا العمل الذي تكرمتم باستدعائي لحفل توقيعه. وهنا أنهي أيها السادة والسيدات

كلمتي:

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

كانت رعود التصفيق وبروق المصورين ترسم لي الغد واضحا.. فها هي ذي الشهرة الكاذبة تجتاح مواقع الصدارة في الشاشات والجرائد.. صور لأمير جديد يتربع على عرش الأدب!

تزاحم حولي العديد من الكتاب والشعراء والمسرحيين، وأنا منهمك في توقيع نسخ الرواية الأكذوبة.. لقد كانت قيثا استقأته بعد خروجي من النادي مباشرة.. والفضل فيه، كل الفضل، يرجع إلى سيدة الفن والأدب!.. إنها كاهنة أخرى.. كانت تنحدر من أسرة فقيرة، وربما لذلك نلت عطفها.. فلعل ضعف حالي ذكّرها بشيء ما في حياتها القديمة.. من يدري؟ المهم أنها زكتني للدخول إلى عالم الكتاب، ودفعتني إلى كتابة دجلي وخزعبلاتي! كانت تنتقم بجمالها لفقرها.. ولقد رأيت عددا من الأسماء اللامعة في عالم الفن والإبداع تركع في تذلل بباب معبدها! كانت هي قديسة ناديهم، وحاكمته الكبرى!

ولقد قدمت لي الكثير منهم: كاهن المسرحيين، ودجال الشعراء، وديوث المغنين والموسيقيين.. أحاطوا بي مثل الدود، تنتين قذرين!.. ولكم انفتحت عيناها واسعتين من الرضى وهي تقدم لي ذلك اليهودي ـ أعزكم الله ـ أعني الروائي الناقد الذي طبق اسمه الآفاق!.. كان يكتب بالفرنسية فقط، ويتكلم في الاستجوابات الصحفية بالعامية، على طريقة اليهود هنا..

قالت لي:

ـ ما رأيك في أن يتولى هذا مهمة الإخراج..؟

فأجبت في بلادة ظاهرة:

ـ إخراج ماذا؟

ضحكت ثم استدركت:

ـ إخراج الروائي: الأستاذ المحجوب!.. أو قل إعادة الإخراج! إن الشاعر أو الأديب في هذا الزمان لا يمكنه أبدا أن يكون كذلك إلا بعد عملية إخراج! تماما كما تتم عملية الإخراج السينمائي أو المسرحي! فيتألق حينئذ ـ وحينئذ فقط ـ في فضاء العالمية.. وهذا ـ وأشارت إليه ـ من أكبر المخرجين في البلد. إن يكتب عنك شيئا، أو يترجم لك إلى الفرنسية؛ يعني انفساح الطريق أمامك إلى النجومية.. وربما إلى نوبل، لم لا؟

ضحكت ومشينا..

وفي الركن الآخر من الزحام قلت لها متحرجا:

ـ أعتذر سيدتي.. إني أرفض أن يكتب عني ذلك اليهودي شيئا!

وفغرت فاها عجبا ثم سألت:

ـ لماذا؟

ـ ببساطة؛ لأنه يهودي!.. أرجوك سيدتي، قدري مشاعري! أعترف لك أني علماني، وحداثي.. بعيد كل البعد كما تعلمين عن الدين وأهله، ولكني كرهت اليهود منذ صغري! إني لست عنصريا.. أعرف أن هذا أمر صعب التصديق عليك، ولكن ثقي.. إني أكره

رائحتهم حتى الموت! تلك الرائحة التي كنت أشمها في (مَلاجِهم)، وفي دروبهم، ودكاكينهم، كانت تثير الغثيان!.. هي نفسها مازالت تنبعث من هذا الذي.. ربما لأنها مرتبطة بأفكارهم وأحلامهم. مثل الإوز لا يحلو له العيش إلا في المجاري الآسنة! المهم يا سيدتي: لا أريد أن يرتبط اسمي بتلك الرائحة!

وكتمت ضحكتها.. ثم مالت نحوي قائلة بصوت خافت يقارب الهمس:

ـ مازلت بدويا حتى النخاع..!

ثم استدركت بانحناءة أخرى:

ـ وهذا أجمل ما فيك!

وحدجتني بنظرة ناصحة فيها الجد وشيء من العطف قالت:

ـ إنك تفوت عليك فرصة العمر!.. أترى هؤلاء؟! إنهم جميعهم يتمنون أن يباركهم بكلمة.. ولو بإشارة في هامش صغير! ولذلك فهم لا يفتؤون يكتبون عنه ويصنفون؛ تمجيدا لهرائه. فلعل وعسى أن يرد التحية بأقل منها، لكنه لا يفعل أبدا إلا أن تكون له مصلحة ما! لا يعطي شيئا بالمجان!.. وحدي أنا التي أمامك لا يرد لي طلبا!

وأحسست بالرغبة في الانفجار، كدت أقول لها: اخرسي يا فاجرة!.. لكني صرفت حنقي نفسا لطيفا، فقلت:

ـ أرجوك.. اعذريني!.. اعتبريه حمقا، أو تهورا، أو غفلة.. ما شئت. هذه طاقتي.. وفوق طاقتك لا تلام!

وبعد جولة أخرى في السوق استوقفتني، وأشارت بعينها:

ـ وذاك؟

قلت:

ـ لا أعرفه..

ـ ذاك كاهنهم الأكبر!

ولكم كانت دهشتي عظيمة حينما ذكرت لي اسمه! فمن ذا الذي لا يعرفه؟ وإنما لم يكن يخطر ببالي أن يحضر مثله حفلي هذا.. ولكنها السيدة.. الكاهنة الكبرى فعلا!.. لما رأيتها تسلمه نسخة من عملي ؛ وتطلب منه بلهجة آمرة أن يكتب عنه،وهو ينحني لها يقدم آيات الطاعة بين قدميها! أحسست أني دخلت التاريخ من باب النساء.. فآلمني ذلك، بيد أني أقنعت نفسي. فمن أنا؟ لولاها ما كان لي شأن في عالم الدجل!

كنت إذا نظرت إلى اسمه، وربطة عنقه، ومكانة حزبه، شككت في الأمر وقلت لعلها نزوة لحظة، تنتهي ولا يكون بعدها شيء.. وإذا نظرت إلى انبطاحه أمام لهيبها، وخضوعه المستضيَع بروائحها! يزمزم بتراتيل المجوس ووثنية الإبداع! تمجيدا لهيكلها! أيقنت أنه فاعل!

حتى إذا كان المقال، يتلوه المقال، علمت أنه مارد عظيم سقط تحت كعب امرأة، فتضاءل حتى صار قزما صغيرا جد صغير، فسدت عليه قارورتها!.. وارتقيت أنا على حسابه، جعلت من ظهره المنبطح صخرة أتسلق من عليها إلى عالم الفن والإبداع.. حتى إذا تربعت على عرشي

دحرجتها إلى الهاوية!.. ثم خطبت مع الأغبياء، أو مع الشياطين: كل عظيم من ورائه امرأة!

سيدة الكتاب كانت تكتب شيئا ينشر في الصحافة الثقافية باسم الشعر.. قالت لي يوما بفهاها الأرستقراطي وقد صفا سماؤها:

ـ ما رأيك في شعري؟

ـ سيد مملكة الإبداع!

ـ أنت كذاب! أنا لم أكتب شعرا قط!

أجبت وأنا أحاول الخروج من الحرج الذي وقعت فيه:

ـ ولكن كبار النقاد يقولون ذلك في مقالاتهم ودراساتهم عنك! فأنا نقلت كلامهم، وعلى كل حال فناقل الكفر ليس كافرا!

ضحكت من خياشيمها ثم قالت بسخرية قائلة:

ـ كبار النقاد!.. إنما أولئك كالحمير، إذا مروا بمكان به بول الأتان؛ وقفوا واشتموا رائحتها من خلاله، ثم مدوا أعناقهم بالنهيق الشديد.. ينهقون فتنتفخ بطونهم بالهوا، حتى تقارب الانفجار!

أما أنا يا أستاذ فقد استغللت ظلام الحداثة، فنفثت فيه الدخان.. وكان شعري الذي عليه يتهافتون! إن ما يفصل بيني وبين الشعر؛ لمسافة ما بين مجنون ليلى ومجنون إلزا!.. الجنون الذي لا يجذب صاحبه إلى خلوات قيس بن الملوح، أو إبراهيم الخواص؛ لا يكون منه شعر أبدا!

أخرجتْ بطاقة أنيقة من محفظتها، ثم قدمتها إلي وهي تبتسم.. قرأت البطاقة فإذا هي دعوة منهم لأمسية شعرية هي سيدتها!

كانت القاعة غاصة بالمثقفين.. هذه هي النخبة المفكرة!.. النخبة المبدعة، يجلسون اليوم في خشوع المتبتلين؛ لينصتوا إلى قينة الثقافة، وعاهرة الإبداع!

كانت قد أحكمت شبكتها تماما.. أي مخرج هذا الذي قد صاغ فضاء هذا العرض الرهيب.. الموسيقى اللافحة.. الأضواء.. الألوان.. اللباس.. الديكور.. ثم الماكياج.. كل شيء قابل للاشتعال فانتبهوا!

وصرخت يا سادتي بموال، لم يكد ينتهي حتى أردفته بآخر!.. ثم سكتت برهة تتملى أصداءه الماجنة في هياج السادة المثقفين وتصفيقاتهم.. ها هي ذي (شيخة) قديرة من شيخات الغناء تقود الساعة سفينة الإبداع!

وشرعت في تعرية كلماتها عضوا عضوا، حتى آخر الستار!

كانت القراءة آهات وغنَّات، تتبرج بهن الجيمات والحاءات والراءات والسينات... وهلم جرا!.. الجسم يتمايل مع الكلمات فينثني ليا، وينحني عطفا على كل الجهات! والنظرات تنطلق منها ببريق ضاحك ساخر ينبئ عن نشوة الانتصار والشماتة بطابور المنهزمين! كل ذلك كان هو القصيد. الكلمات أصوات وكفى، ولكن.. ولكنها الشعر كله، والإبداع كله! وإلا فما بال هؤلاء الناس قد سكروا حتى الجنون! يصفقون قائمين وقاعدين! ويشهقون ولهين ومتأوهين!

كانت شرفتها تطل على قلب الدنيا.. تنظر إلى صورها في الجرائد، فتبسم حينا وتلعن حينا آخر.. تقرأ التعليقات ثم تردد في ضحك ساخر لا يخلو من مرارة:

ـ كذبة! منافقون! انتهازيون!

دفعت ركام الجرائد من أمامها ثم احتضنت كأس القهوة بكلتا يديها، وركزت نظرها تجاهي ثم قالت بنبرة صارمة جادة:

ـ أتدري يا محجوب؟.. لا شيء من هذه الأضواء الكاذبة يسعدني!

ونظرت إلي تنتظر الجواب.. الحقيقة أني شعرت بالخوف! ربما لأول مرة أخاف في مثل هذا الموقف..كان كلامها ينبئ عن هول ما.. حاولت أن أخرج من الحطب والشوك قبل الاشتعال، فقلت متلطفا:

ـ ألا يسعدك أنك أميرة الفن والإبداع؟.. يجب أن تسعدي! هؤلاء المنافقون إنما يذلون أنفسهم، ويخسرون مبادئهم، ولكن المهم أن تتربعي على العرش. وهذا حاصل!

ـ نعم.. هو حاصل لكنه لن يدوم.. هؤلاء الثعالب يتمرغون أمامي مادامت النضارة في وجهي! أتعتقد أن الشباب خالد؟ الأيام تمضي في غير صالحي يا محجوب!..

وازداد خوفي أيها السادة!.. أي كلام هذا؟ لقد كانت تخصني بأحاديث عن حياتها وكذبها.. ولكني ما رأيتها قط تعظ مثل راهبة! وبدأ قلبي يخفق بشدة.. وقبل أن أستريح من هذه أطلقت علي قذيفة أخرى:

ـ قل لي.. أنت متزوج؟

وانفجر الهلع بقلبي دما يتدفق في الشرايين هاربا في كل اتجاه!

أي ورطة هذه يا إلهي!؟ بحثت عن الريق بلساني لأطفئ الحريق الزاحف من حلقي.. وأقسم لكم! لقد شممت رائحة الدخان تخرج من جوفي!.. ويحي! كيف أتخلص من هذه الـ... وتذكرت فضلها على قلم أكمل!

الزواج.. هذه الحقيقة الرهيبة.. التي كنت أهرب منها، ها هي ذي تواجهني اليوم في أبشع صورها! تذكرت سيدة البستان.. ونظرت إلى كاهنة الثقافة الماثلة أمامي.. هذه حاكمتهم التي ينبطح عند قدميها كهان الفن والإبداع وسدنة الحداثة.. هي ذي الآن تركع لي ذليلة كالأتان! فشعرت أنهم جميعا وراءها راكعين! واعتلى يوسف الصديق عرشه فردا!.. كانت تعرف أني لم أقع في هذه الخطيئة قط! فملامحي البدوية لم تنمح من وجهي بعد! بحت لها بعلمانيتي أكثر من مرة.. كشفت لها عن كل غواياتي المجنونة وضلالي البعيد! حدثتها عن نادي الموظفين وسيدته.. وكل نوادي المجانين! رأتني مرات أخوض مع الخائضين.. ولكن نقطة ضعفي الوحيدة: هي يقينها أني لم أومن قط بشيوعية الجنس.. فاستهانت بكل حماقاتي.. وصنفتني!

ويحي! من يخلصني!

نظرت إليها من جديد.. كانت الدموع قد غمرت عينيها، فسالت تجرف الأصباغ الكاذبة في خليط وسخ، مسجلة بذلك هزيمة الحداثة في قلب باريس!.. وشعرت بالإشفاق عليها.. يا ليتني ما عرفت سيدة البستان قط؛ وإذن لأغمضت عيني وفعلتها!.. ولكن كيف أجمع في قلبي بين بخور الجنة ودخان جهنم؟ لا!.. لا أستطيع! بأي يد ألتقط هذه الإسفنجة الغارقة في نجاسات شتى؟.. تقولون أناني؟.. نعم! لهذا جملي شرد كثيرا.. وتاه كثيرا.. أذكر كل البرك الآسنة التي ولجت، وما

زلت ألح.. وأعرف أني لم أحترم القيم كثيرا.. ولكن ثمة قوة تشدني إلى حب الهواء نقيا كالصبا.. لست أدري.. وما زلت أهفو إلى سيدة البستان.. وأحن إلى سهب الشيح البري.. هذا طبعي فسموه ما شئتم: انفصام شخصية، أو جنونا، أو طوباوية، أو انتهازية.. أما وإن كان لابد أن أورق مثل الأشجار، فليس في الحدائق الاصطناعية، أظلل شوارع الدخان بأوراق كالمطاط، لا تبلى ولا تتجدد!.. أنا يا سيدتي قد صُمْت دهرا طويلا.. فكيف أرضى لنفسي أن أفطر بجرادة متعفنة؟! هذه طبيعتي، فعذرا يا أيها الإشفاق الجريح بقلبي!..

سيدتي.. لك أن تختاري بين هذه الأشجار الداجنة ما تشتهين.. أما أنا فقد نَبَتُّ في الواحة، تماما مثل فسائلها.. جذر أصيل من جذورها.. شربت الرياح العاصفة في صحاريها إلى درجة الإدمان!.. فما عدت أطيق العيش خارج اختيارها!..ألفت أكل أعشابها سارحا مع عيرها.. عالجت جسمي بأكل الكرنب البري.. أو (خضرة الجِمال) كما يسميها أهل البلد، ربما لكثرة ما تقتات بها الإبل الراعية.. إنها ـ سيدتي ـ نبْتَةٌ هزيلة الأوراق مثلي، تنبت فوق الرمال والسهوب الوحشية الأبدية!.. كانت أصابعي تمتد لتقطف وريقاتها بتفنن، ولساني يسبق إليه ريق التشهي!..حتى إذا مللت حلاوتها ملت إلى (الرُّغَل) ذلك العشب الأخضر الأغبر..وريقاته كأنها آذان الدجاج البري.. لها طعم الحموضة المملحة التي لا تنتهي لذتها في الفم أبدا.. تأكل منه فإذا شهيتك تفغر رغبة في أكل كل شيء! وهل تنسى طعم القَرْطوفة؟ ذلك النبات القصير، ذا الزهيرات الصفراء، الذي يشبه ـ إلى حد التداخل ـ نبات البابونج ابن السهول الريانة، لكنه أجمل منه وألذ، كلما أكلت منه وريقات، أو

زهرات تدفق لسانك بالماء جداول منك وإليك!.. ذلك علاج العطش للرضع عند أمهات البلد. كلما عجز الماء الطبيعي عن إطفاء بكاء الرضيع!

وقلما تنبت القرطوفة وليس إلى جانبها صنوها أو ربيبها، أعني نبتة (الوزوازة)، إنها تشبهها تماما شكلا ومضمونا، إلا أن خضرتها أكثر نصاعة .. فإذا خالطت صاحبتها الأولى على تل رملي.. كان للاخضرار بين هذه وتلك تموج مذهل، ولصفرة أزهارهما الصغيرة جمال التويجات على رؤوس الصبايا!.. ثم لا أنسى أن أعرج على حقول الأعشاب الداجنة؛ لأقطف قضمات من الفصْفِصَة الطرية، أو (القَصَّة) كما يسمونها.. آكلها ندية، وما ألذها إذا لف فيها شيء من الفلفل الأخضر! حتى إذا كان العشاء؛ لم أجد في بطني متسعا لطعام النار!

هنالك بين مسالك تلك الأعشاب وأشباهها، صاحبت زواحف شتى.. وحشرات شتى.. وحيوانات شتى.. تابعت قافلة النمل حتى تعبتُ وما تعبَتْ.. لعلي أعثر على مسكنها، أو سربها الذي تتموّن منه.. راقبت النملة وهي تحاور صاحبتها في جدال عنيف.. أو تلقي إليها خبرا خاطفا وتنصرفان.. وكم يكون حزني إذا اكتشفت أني كسرت رجل إحداهن أو يدها؛ بوطأة غافية حمقاء!

أي سلم ذاك الذي كان بيني وبين الأفاعي، والعقارب؟ رغم كثرتها وانتشارها في كل مكان.. تمر إحداهن بقربي وأنا متكئ على بساط الرمل، أرقبها في هدوء وشيء من الحذر؛ حتى تمضي بسلام!.. أما حيات السواقي غير السامة، فكم لاعبتها لعبة الساحر والقنينة! إذ أضعها بداخلها ثم أصفق لها بيدي وأصفر لها بفمي.. حتى تخرج

مشرئبة بعنقها الرقيق، تنظر إلى الأطفال هادئة مطمئنة!

وإني لأذكر كم كان حزني شديدا؛ ذلك المساء الذي رأيت فيه أحد الرحل من قبائل (دوي منيع) يدخل إلى القرية حاملا أنثى الذئب مقيدة.. ليهديها البليد إلى رئيس السلطة المحلية! تبا له!.. كم كان ظالما ذلك البدوي القاسي!.. ألم يفكر في جرائها الصغار يحبون في مغاراتهم ولما يفتحوا أعينهم بعد! من سيرضعهم إذا ادلهم الليل وسكنت الأوابد في البراري؟ وبأي خفق ستفكر تلك المسكينة في أبنائها وهي تنقل بين بنايات بني آدم إلى المصير المجهول!

ألا ما أجهل الانسان! فمن غيره يدمر الحياة من حوله وصفاءها؟ ثم يختنق في الأخير بدخانها!

ـ مالك لا تجيب؟

واستيقظت على سؤالها مذعورا!.. نظرت إليها قليلا، ثم لبسني خبثي.. وقررت المواجهة! لا بد من الدخول في حرب استنزاف شاملة! وليكن ما يكون!.. شرعت في استدعاء لغتي الطلابية، واستحضار كل حيلي النضالية.. وقذفت بأول خدعتي.. فالحرب خدعة:

ـ عجبا!.. أمثلك يفكر في الزواج؟

رمتني بنظرة فاحصة.. كانت الغواصة تغطس في بحيرة السفانا المتوحشة، ها هي ذي تدخل في كل المغارات الباطنية، وتدخل يدها المرتعشة في جحوري.. أتمت الجولة في الأعماق، وقد ضاقت أنفاسها ثم ارتقت إلى السطح بقوة الدلفين، فقالت:

ـ معرفة قصدي لا تغنيك عن جواب سؤالي! فلا فائدة من رمي سؤال بسؤال!

ثم أشعلت سيجارتها الأمريكية، ونفخت في كبرياء.. فوجدتها فرصة أخرى للهروب، فقلت بحنو متكلف:

ـ السيجارة يا أستاذة؟!.. ألا تعلمين؟

ردت في الحال بكلمات جاهزة، كأنها كانت تنتظر التعليق:

ـ أنا أدخن؛ إذن أنا موجودة!

آه! هذه بداية النحس! منطق ديكارت ينقلب الآن سلاحا ضد ديكارت!.. دخان التشاؤم يزكم أنفي الساعة. فإنما قتل فيلسوف المنهج بسبب امرأة! ألم يجد نفسه ملزما بتعليم الفلسفة لملكة السويد البليدة، في الخامسة صباحا من كل يوم، حتى داهمه المرض بسبب برد ليل الشتاء السويدي فمات؟!

ثم استأنفت وهي ترسل إلي سحابا من الدخان:

ـ ... وسؤالي ما زال في الهواء!

أحسست أنها تريد إخراج المعركة إلى المكشوف، فقررت تغيير الخطة.. استجمعت كل قوتي، وحشوت الذخيرة الحية، ثم أطلقت النار!:

ـ أما أنا فإني لم أجدها بعد!

ها هي ذي تتلوى من عنف الألم.. كانت الطلقة قد اخترقت كبدها، واستقرت في ضلوعها الخلفية!.. هكذا كانت أمس تتلوى فوق منصة الشعر كالحية.. فأي فرق بين التواء الشهوة والتواء الألم؟ ألا ما

أغرب عالمهن! بعظم كيدهن ويعلو، حتى إذا كان الانفجار: انقلب إلى انهيار، وتلاشى مثل خيوط العنكبوت!..

نظرت إلي نظر المغشي عليه من الموت، ثم قالت وهي تكاد تُقوِّمُ الكلمات بيدها عسى نطقها يستقيم!:

ـ عمن تبحث إذن!

تابعت المعركة فما بقي الآن مجال للسلام:

ـ أبحث عن الإنسان!

ضحكت ضحكة باطنها الحزن وظاهرها سخريه الانتصار! فقالت:

ـ هكذا أنتم الرجال دائما.. عندما تعجزون عن إخفاء أنانيتكم، تفرون إلى الميتافيزيقا.. وتسمونها بغير اسمها: حتى لا تتهموا بالتناقض في المبادئ!

شعرت بعمق كلماتها الرهيبة! لكني قررت الانتصار فلا بد من المضي حتى النهاية. قلت:

ـ الإنسان عندي سلوك ومواقف، لا غير.

ـ سلوك ومواقف؟ ما الذي يمليها إذن؟ هذا اللحم والدم، أم شيء آخر؟

ـ ليكن ما يكون! سميه الغريزة، أو الروح، أو التقاليد! المهم عندي هو مفهوم المرأة الحقيقي، لا المفهوم الذي صنعته الأضواء العفنة!

ـ آ.. هكذا إذن! ومن أي دير أو صومعة تخرجت سماحتكم؟

أليس من معيد العهر؟ ومن أعطى الإذن للأضواء العفنة أن تخرجك للناس؟ أليست الـ... وغصت أصواتها في البكاء!

أحسست بورطتي.. وشعرت بدخان الهزيمة يخنق سمائي! .. فكرت في الفرار فاستشنعته، فكرت في الأسر فأبيته، فكرت في الردى فرفضته، فلم يبق لي إذن إلا طلب الهدنة! ولأسمه أنا أيضا سلام الشجعان! على طريقة أبناء الأفاعي!

أرسلت كلماتي وقورة هادئة كالعزاء:

ـ المعذرة!.. لم أقصد ما وقع في ظنك قط! تعلمين أني بدوي لم يصقل لغة اللباقة بما فيه الكفاية، فإذا هي تؤدي غير المراد منها بالضبط!.. أعترف أن هذه غلطتي.. بل مشكلتي الكبيرة!

رفعت إلي عينين مطفأتين في حمم النار، ثم قالت:

ـ لا.. أنا لا أبكي! فاطمئن! لا لك ولا عليك.. أنا لا أستعمل سلاح البكاء، هذه تفاهة.. وإنما أنا أمارس شهوة الندم!

انبسطت أنفاسي رغم عمق طلقتها.. رضيت بهذا المستوى من الانهزام، وقررت تغيير مجرى الحديث، فقلت بوضوح:

ـ لندع هذا الموضوع الآن!

ردت بحدة غاضبة:

ـ لا! حتى أصل إلى ثمالة مازوشيتي!..

وضعت يديها على متكأيْ أريكتها، وشهرت وجهها في وجهي وهي تقول:

ـ ألهبني بسوطك الجميل يا محجوب!.. أرجوك.. اصفعني! ارجمني بحجارتك الجارحة! عذبني!.. فلطالما اشتقت إلى مثل هذا العذاب!

شعرت بأن حالة مرضية ما تعتريها.. أحسست بالخوف والإشفاق يرتجفان بقلبي.. أقسمتْ علي بكل مقامات الشهيق أن أصفعها.. وقفت حائرا، وهي لا تفتأ تذرف دموع الرجاء.. رفعت يدي في الهواء، و...

واشتعلت مناجل الحصاد تطيح بالسنابل هشيما!.. كان دمها يشهق بين الحقول.. وكانت الحُمُر تتنقل بنشاط بين البيادر، يسخطها التداول تارة، ويرضيها تارة أخرى.. فالدِّراس ببيدر الكريم ـ ولو كان مقلا ـ يعني أن العشاء كريم! تبن وقصفصة وافرة.. وربما بعض شعير! أما البخيل فسم قاتل! سوط بالنهار، وجوع بالليل!.. وكم كنت أحتج على والدي بصوت أشبه بالبكاء؛ إذ يداول حمارنا مع جارنا المسموم! كان حماره لا يتحرك إلا بجهد جهيد.. وإني لأنسى كثيرا، لكن خط الدمع المترقرق أبدا على مآقيه؛ لا يمكن أن أنساه أبدا.. وكلما قيل له في ذلك أجاب ساخرا: أما يكفي أني أحتفظ لنفسي بهيكله؟ اشتريته هيكلا وسأبيعه هيكلا إن شاء الله!

***

-3-

كان الغبار بباحة القرية يشكل ملحمة عنيفة في الفضاء،، إذ شق المؤذن المساء بصوته الرفيع، من غير استعانة بمكبر صوت.. وذكرني ذلك بالفقيه الإمام.. لست أدري لم تذكرته الآن بشيء من الحنين!.. وقررت أن أراه في زيارة خاصة إكراما له. فـهـما يكن من أمر فهو الذي علمني الأحرف الأولى للقراءة التي كان منها كل شأني.. مكثت في سامر الشباب حتى قدرت أنه أنهى الصلاة وقراءة الحزب مع الطلبة. وتماديت قليلا، ثم دخلت سراديب الظلام أغوص في دروب القصر، حتى وقفت على بابه.. ترددت قليلا ثم طرقت الباب.. لا حظت نورا ضعيفا يقترب فيملأ شقوق الباب الخشبي القديم، وسمعت السؤال صادرا من فتاة:

ـ من؟

فأجبت بعادة الطرق في البلدة مستأذنا:

ـ مَوالي الدار!

وسمعت الجواب التقليدي:

ـ الله مولاها!.. من تريد؟

ـ الفقية!

ـ ومن أراده؟

ـ أنا.. المحجوب.. أعني المجذوب!

وتراجعت الأضواء شيئا فشيئا، حتى طم الظلام، وبعد لحظات عاد النور من جديد يتسرب عبر الشقوق، حالما بالأنس الجميل.. وانفتح الباب على عزف ولا كنوح الكمان!.. ثم قالت:

ـ قال لك: ادخل، إنه بالسطح الأعلى.

أما أنا يا سادتي الكرام فلم أسمع شيئا!.. إن كنتم سمعتم أنتم فنبهوني!.. كانت المفاجأة الرهيبة قد خطفت مني كل الحواس إلا حاسة الجذب!.. أتكون هي ابنة الإمام؟.. هي، هي عينها سيدة البستان؟ أي موافقة هذه أم أي كشف!؟

كانت تفتح الباب متخذة إياه جنة لجسمها، فلا يبدو منه إلا وجهها مطلا من بين ثنايا الإزار.. تقبض على قفل الباب الكبير بيد، وترفع في وجهي بيدها الأخرى مصباح النفط الصغير.. إنها هي بلا ريب! فها المصباح تتفرق أشعته الذهبية عنها مصابيح أخرى تتداعى سابحة في كل مكان!.. أي أغرودة يمكنها أن تملأ حنجرة البلبل الشريد وهو يحط على عشه الظليل، بعد زمان من التيه في قيظ الصحاري اللاهبة؟.. ها أنا ذا على حرف الجدول الرقراق أغني أغنية المساء الوليد. فيا طيور اخرسي! ويا حمائم اسكتي! هذا وقتي يتفتح الآن فاسمعي!..

كانت البسمة الحبيبة تتدفق ملء النور المتداعي، فإذا الدوالي تورق من فوقي وبين يدي، فتقطر الأنداء من جسمي عرقاً عبقا كأنه الكهرمان!.. قلت لها وقالت لي بيد أنا لم نتكلم! فبأي قصيدة ستعزف يا هدهد هذا المقام؟ أم بأي لغة يمكنك نقل مضمون هذا الكلام؟.. لحظة خاطفة كانت، لكنها دامت كل الزمان، وملأت كل المكان!.. رأيت وما

رأيت، وغضضت وما غُضِضْتُ!.. فسبحان من خلق المحال بلا مثال!.. ولقد وددت لو أني رحلت مسافرا في هذا العفاف الوارف سفرا لا ينتهي أبدا!.. لولا أن أيقظني من حالي قولها المنبه بنوع من العتاب المتخفي:

- تفضل!

وأذكر أني دخلت يا سادتي، لكن صدقوني.. إني لا أذكر ما كان من لقاء الفقيه!

***

مددت رجلي متعبا فوق سطح الدار الفسيح، فأقبلت عليَّ أخواتي يسألنني عن أحوال المدينة وأخبارها.. فأجيب باقتضاب متضايقا بثرثرتهن التي لا تنتهي، وهن يقدمن لي أخبار الجيران والأقران.. حتى إذا كان الليل واجتمعت الأسرة واتخذ كل منا مكانه في مملكة الشاي.. أجبت أبي عن سؤاله الوحيد:

- متى وصلت؟

- مساء.

- حسن!

وينتقل الحديث مباشرة إلى هموم الزراعة والدراس!

كانت تلك طريقته في الترحيب بي.. برقية مقتضبة، وينتهي البروتوكول!

في لجة الحديث انحنيت على أحد إخواني سائلا بصوت خافت:

- عند من يبيت الحمار؟

- اطمئن! عند الفقيه

وانبسطت للخبر.. فالفقيه رغم قسوته علي قديما هو أرحم أهل القرية بالحمير، وأكرمهم مدا لعشائها.. لكني سرعان ما صفعني خاطر أفسد علي سعادتي الصغيرة: كيف يعقل أن يكون حمارنا هناك وهي هناك؟ وتملكتني الغيرة يا سادتي.. ثم صرخت في أدغالي البعيدة غاضبا: أي استهتار هذا الذي تمارسون؟.. دوحة العفاف الوارفة الطاهرة، ترسلون الحمار البليد ليسرح بساحها، ويروث تحت ظلالها! أي حمق هذا وأي ظلم؟! وشعرت بالخجل يغرس خناجره في دمي!

ويمضي حديثهم لغطا يطن بباب أذني دون أن أدرك شيئا مما يدور.. فتحت عيني أبحث عما أعالج به جرحي، أو أسلي به نفسي لعلي أنسى.. فانتبهت إلى الشعاع الحزين، المترقرق من قنديل النفط السحري! وفتحت قناتي المفضلة:

لم يتحرك شيء على الشاشة .. كل ما هنالك أن ذرات النور بدأت تتحرك في الحاهي وتدخل في مسامي تباعا.. وانزعجت لذلك، فهذا شيء لم يحدث لي من قبل قط! حاولت أن أصرف عيني عن الشعاع فلم أستطع. شعرت أن قوة غريبة تشدني إليه .. والنور لا يفتر يتسرب إلى جسمي.. وفجأة بدأ القنديل يتلاشى حتى ما بقي منه إلا لهب الفتيل الصغير!.. فركت عيني، مسحتهما.. استعذت بالله من الشيطان.. فإذا اللهب الصغير ينمو بتدفق هادئ حتى ملأ قطر الطاولة الأرضية، وعلا بنفس المقدار تقريبا أو أكثر قليلا.. ثم هدأ ورق وصفا

.. فتحركت الصورة.. ويحي! لقد كانت هي.. هي بعينها.. سيدة البستان! إنها تمشي نحوي بين خمائل اللوز والرمان.. كان إزارها يرسم حولها هالة من الضباب تغشى الغصون، ثم يمتد في الفضاء سحابا أسود قاتما، راسما بذلك طريق العودة السري!

الرحمة يا إلهي! أي ورطة هذه التي وقعت فيها؟ نظرت حولي.. حاولت أن أتبين لغط المجلس؛ عساي أدرك موضوع الحديث فلم أفلح! لكني أدركت أنهم في حال غير حالي.. أو ربما في زمان غير زماني! فشعرت بشيء من الاطمئنان.. رفعت بصري لما شعرت باقترابها، فاستدارت في حركة قوية كالريح الغاضبة، ثم ولت راجعة بين الأشجار..

أحسست بحزن غريب يجتاح فضائي.. خطوت إلى الأمام برجل خائفة مرتعشة، ومشيت على الأثر بين الخمائل حتى توسطت البستان، نظرت يمينا وشمالا فلم أرها! كانت قد اختفت تماما.. الليل ساج ينساب في سكون، والغيوم والأقمار تتداول احتضان المكان.. كان قلبي يخفق بشدة كأنما يتأهب للطيران! وجوانحي تعتصرني من الحزن والخوف اللذين أحاطا بي. ها هي ذي الأشجار تتحرك مثل الأشباح!.. شعرت برغبة قوية في الصراخ، بحثت عن اسم ما قد يكون هو اسمها فأنادي به.. وتملكتني الحيرة، فصرعت السكون بصوتي مناديا:

ـ يا... آ.. آ..

وسكت أصغي للأصداء المستغيثة تملأ الوادي فزعا!.. فإذا الصهيل ينطلق مجيبا من كل مكان، كان وقع الحوافر قويا، كأن خيلا مغيرة تقبل نحوي.. وازداد خوفي.. ويحي!.. واندلعت الريح عاصفة

تحمل البروق والرعود!..

ويهطل المطر!

أحسست بالبرد الشديد يقرس أضلاعي، كانت الأغصان الصغيرة القاسية تنطلق نحوي؛ عِصِيّاً من عذاب رهيب، تقطر بالماء والنار!.. أحنيت رأسي تحت مرفقيَّ، فانكشف ظهري للريح، وانهالت على السياط تنهش من جسدي! كل الأشجار كانت تمد عذابى بأغصانها الصلبة.. اللوز، والرمان، والمشمش، والزيتون، وجريد النخل يا سادتي!.. وأنا لا أكف عن الصراخ:

ـ يا.. آ.. آ..!

مستنجدا، أو معتذرا.. لا أدري!.. ولم أعرف كيف هويت في غياهب الإغماء.. حتى فتحت عينيَّ بذروة الجبل!.. كان الدم يسيل من جروحي، وكانت السماء قد صفت تماما، ولولا جداول الماء الصغيرة المنحدرة نحو النادي؛ لما علمت أن المطر قد كان يعصف قبل ساعة!

لمحت عليا يدب صاعدا نحوي على أربع، ها هو ذا يجتاز العقبة ولا يقتحمها أبدا! يخط قوس الأحزان بين النادي والشلال، في رتابة الأيام الكاذبة.. وللتوهم دورة مثل دائرة الصفر، ينتهي العمر سيرا ولكن في نفس المكان..

آه! هذا آخر الليل إذن!

اقترب مني وهو ينظر في ذهول، ولما لاحظ جراحي ولى مذعورا ولم يعقب، فقال:

- متى كنت هنا؟.. ثم ما بك؟.. ماذا حدث؟

- اطمئن!.. لم يهاجمني أحد.

واحترت في أمري كيف أفسر له؟ وبأي منطق أقنعه بالذي حدث، وأنا أعيش خارج المعقول!.. ثم تبادر إلى ذهني حل ربما يصلح لإقناع مثله، فاستأنفت بسرعة قبل أن يكثر من هذره:

- هل تؤمن بالصرع؟

- الشيطاني أم العضوي؟

- لست أدري.. المهم أن شيئا من ذلك قد حدث!

ونظر إلي بإشفاق، فقال بما يشبه العتاب:

- ألم أقل لك يا محجوب؟.. ألم أقل لك إن كيدهن عظيم!؟.. والله ما سبب لك هذا إلا ذاك!

ثم مد إلي يديه يساعدني على النهوض وهو يقول:

- هيا بنا إلى الزاوية!.. هناك عند الشيخ تجد العلاج.. للروح وللبدن!

ونهضت بقوة - رغم جراحي - قبل أن تصلني يده، ثم وقفت مستقبلا مدخنة النادي الضاربة بضلالها في الفضاء، ووليت الزاوية قفاي! ثم قلت بصوت عال:

- إلى شيخك وزاويتك يا علي وحدك! أما أنا فمعركتي لم تنته بعد!

كان يعرف إصراري الرهيب الذي أموت دونه.. ولذلك لم يحاول إقناعي.. وإنما نظر إلي نظرة يائسة، ثم تدحرج إلى سكرته الثانية، مخلفا وراءه رائحة أنتن من رائحة الخنزير البري!

نظرت في الأفق الممتد أمامي، فأبصرت المدينة تحترق في أضوائها.. وأنا كالبعير إذ يشرد في تأملاته، أمد عنقي تجاهها حائرا.. آه! ما هذا اللغز في حياتي؟.. ما أريده لا يريدني، وما يريدني لا أريده! فكيف تجتمع الحياة للناس وتصفو؟.. أكذب هذا الذي يتحدثون عنه من موافقات ومرادفات؟ أم أني الشقي وحدي أركض بين السراب البعيد والدخان البليد؟.. خرجت أبحث عن حظي فنلت كل هذه الجراحات دون جدوى! ماذا فعلت؟ أي ذنب هذا الذي اقترفت حتى أسام بهذا الصد العنيف؟..

إيه يا مدينة النفاق والبهتان!.. قادم إليك أنا بقوائمي الأربع.. أجوس خلال الديار، وأمرغ شهواتك في التراب.. أخضعها ذليلة تحت شهوتي! لك سحرك الذي يذل القلوب الضعيفة، ولي سحري الذي يبطل كل طلاسمك البليدة!.. بخوري يا سيدتي هو الريح والشيح، والنفس المستريح.. نفخة واحدة وتركعين عند قدمي خاشعة.. هذا فجرك يا ولدي، فأسرج حصانك وابدأ غارتك الثانية على ناطحات السحاب!.. سيدة الثقافة صريعتك الأولى.. ولكن العداء يولد الانتقام. فلا بأس أن انهارت أسهمك في سوقهم، فلم تعد الجرائد لك ممجدة ولا عابدة. غيروا الصنم بصنم مثله.. تباركه بالعهر كاهنة المعبد. ذلك حظك منهم يا فارس الجنوب.. والحرب سجال، الحرب سجال!

نظرت إلى مداخن الخمارات هنا وهناك، بحثت عن مرمى جديد،

فكرت مليا، ثم فكرت وقدرت.. وفي أقل من خطفة شيطان التقطت فكرة النقابة من شريط التذكر السريع!.. آ.. وجدتها! وعاودني الحنين إلى لغتي الطلابية، وعباراتي النضالية. استمر بي التذكر طويلا.. نظرت إلى عصابة المناضلين، تلك المافيا الحمراء المتكالبة على الجنس باسم النضال والتحرر، ونظرت إلى وجوه الرفيقات البئيسة، وهن يلقين كلماتهن الجوفاء.. وجوه أشبه ما تكون بالأحذية القديمة، أو الإسفنجات الوسخة المتهالكة؛ لفرط ما جففت بهن أوساخ الحي الجامعي!.. وتذكرت البوليس إذ حاصر عمارات الحي في الهزيع الأخير من الليل، وكيف هربت ورفاقي متسلقين النوافذ والمبازيب، متدلين في الهلاك من الطابق الرابع! أي جنون ذاك الذي كان أم أي شجاعة؟!..

وتذكرت اعتقالي ليلة يناير الرهيبة.. ثم نظرت إلى أفق المدينة من جديد، أتأمل مسالكها من بعيد؛ لعلي أتمكن من رسم خطة دقيقة لغارتي المقبلة، ووددت لو أنني قدت مظاهرة صاخبة في هذا الليل، تدوس بحوافرها ذاك الكبرياء الكاذب، المتصاعد عبر تلك المداخن الوسخة!



لم يكن بالقاعة غير يسير من المناضلين، فعدد الكراسي الفارغة أكثر من الجالسين! كان المتكلم على المنصة زميلا في العمل، لم يكن يخطر على بالي أن يكون صاحب هوس نقابي.. قال شيئا لا أذكره ثم عاد إلى مقعده. المسير رجل لم أره من قبل، لا شك أنه موظف في غير إدارتنا.. كان أصلع، هادئ الوجه. لباسه الترابي الذي انتشرت ثناياه

بصورة فوضوية، دالة على أنه لم تمسه المكواة قط! حيلة لكنها بالية، كذلك كان الطلبة يعمدون إلى إهمال ملابسهم؛ عسى أن يوحي ذلك بأهلية للقيادة النقابية. كان ينظر إلى الوجوه كثيرا كأنما يبحث عن شيء، ويعطي الكلمة لمن يطلبها، غير مكترث ولا منتبه إلى ما يقال، وكأنه يشعر أن هذا الهذر المتناثر إنما هو عبث لا طائل من ورائه..

سيدة قمحية اللون ـ إلى شيء من السمرة ـ تجلس إلى جانبه، توشوش له حينا بكلمات، ثم تضع يدها على خدها وتستند إلى الطاولة الصغيرة أمامها، وهي تحملق في الجالسين بصورة توهم بالغباوة والشرود.. لباسها كان شيئا يدل بالفعل على استهتارها، لكن في أرستقراطية بعيدة عن صورة الطبقة الكادحة. كل شيء فيها يدل على النضارة والنعيم!

أما المتكلمون فقد كانت خطاباتهم نقدا سياسيا يختفي وراء الرموز والألغاز.. طريقة الفصائل الطلابية المؤمنة بالمرونة والتواصل مع الخصم.. وعلى كل حال، فهؤلاء موظفون لهم مصالحهم، وأسرهم، ومخاوفهم. وربما كان منهم من لم يعرف العمل النقابي في الجامعة، ولا مر منه!

فكرت في التدخل، ثم أرجأت ذلك قليلا، حتى أقدر حجم ترسانة الجمع ومستواه القتالي.. فالمسير لم يتكلم بعد، ولابد من معرفة قمة الهرم.. فصراعي لن يرضى باحتلال المواقع المتوسطة.. إذن؛ لابد من سبر أغوار كل التوجهات، قبل إلقاء العصا! طريقتنا القديمة في الصراعات الطلابية.

وبعد لحظات استأذن المسير من نفسه، وشرع في الكلام..

لم يكن أحسن حالا من سابقيه بكثير.. شيء واحد كان يميزه، هو الحس الإقناعية التي ملأت خطابه.. كان ظاهر الكلمات نقابيا لكن المقصد الأصيل هو تعميق الإيمان (بإنيته) النرجسية، لدى جمهوره القديم، أو التبشير بها في صفوف النقابيين الجدد..

تكلم في الهواء عن الحقوق، والتعويضات، والترقيات، والكرامة التي هي فوق كل اعتبار.. تلك كانت ظواهر الخطاب فقط! أما بواطنه فكانت أقوى وأبين، كانت الأصداء ترتفع متشدقة: لإسكات أي خاطر يمكن أن يتسلل للنفوس، فيغير من قيمة المسؤول الأول للنقابة!: أنا الزعيم لا كذب! أنا الرمز الملتهب! أنا البطل، أنا الأسطورة، أنا المعجزة التي لا يمكن أن تتحقق في غيري، أنا عنترة بن شداد، أنا سيف بن ذي يزن، لساني هو سيف آصف بن برخيا!.. أنا الرياسة وأنا الريادة والقيادة.. لا أرضى بغيري سيدا للمستضعفين، لي الصدر دون العالمين أو القبر.. أنا قاهر الأبطال وقاصم الشجعان.. وحدي أنا أستحق الجلوس إلى سيدة النقابة! وحدي أنا أستحق إعجابها الأنثوي! وأنتم، أنتم كلكم جبناء، تحتمون تحت خطابي.. لا أحد منكم يستطيع مواجهة الإدارة، والوقوف ضد الحكومة، إذن فأنا الوحيد الناطق باسمكم، وأنتم كلكم لي تبَعٌ.. ظلال متعددة لحقيقة واحدة هي: أنا!

وأحسست بالتحدي المقيت الذي طالما كرهته في النضالات القديمة.. رأيت فيه طاغية من نوع آخر، يحتكر قوة الإبداع ولذة التحدي.. وكل دكتاتورية في الكون يا سادتي؛ تهون أمام دكتاتورية الشعور!.. أن تحتكر الإحساس دون سائر الناس، وتقطع السبيل أمام كل

قادر على امتلاكه، يعني أنك نيروني الفكر! صهيوني النزعة!.. ولذلك قررت أن أخوض المعركة، وأن أقاتل من الجولة الأولى!

وتعالى التصفيق في القاعة ـ كالعادة ـ بعد انتهائه من تجويد شعره الثقيل! جلس وهو يمسح العرق المتصبب من جبهته.. وقبل أن يسبقني أحد؛ طلبت الكلمة في افتتاح الدور الخطابي الثاني، نظر إلي ببسمة الرضى عن نفسه وكأنه يقول لي: لا تتعب نفسك يا ولدي! فليس في الإمكان أبدع مما كان!.. سألني وهو يقطب حاجبيه مبالغة في إنكار اسمي:

ـ الـ... الاسم؟

أجبت وأنا أضغط على الحروف تغليظا لصوتي:

ـ المحجوب!.. مصلحة الضبط.

ثوان فقط؛ وأبرق الإذن.. وقفت للكلام، فطوقت القاعة بدرعاتي؛ وانهمر الرشاش قويا في اتجاه واحد ووحيد: هو فخامة المسؤول النقابي.. كان هدفي محددا والمرمى واضحا، فكان خطابي المفاجأة الجديدة!.. جمعت كل عباراتي القاسية؛ بل كل تهوري القديم، ونزواتي النضالية.. وأشعلت اللهب فوق الرؤوس!.. منطلقا بأقوى سرعة تفجرت في شراييني، كي أحطم الرقم القياسي بفارق مهول مثل الجنون!..

واتجه الإقناع في اتجاهين: الأول تحطيم أسطورة الزعيم النقابي المزيف، وإجلاؤها من عقول المريدين. والثاني جمع الرأي العام على مبايعتي محله!.. وهكذا أكون فتحت لي بابا جديدا في الحياة.. (ومن كانت له طريق واحدة؛ قطعها الله عليه!).. واستعرت من الذاكرة شبابي

فتكلمت.. أغرقت السوق بكل المصطلحات المحظورة، والتصريحات المسكوكة، المعلومة في عالم السياسة بدلالتها المؤدية ـ تاريخيا ـ إلى السجون والظلمات!.. وباختصار يا سادتي الكرام تجاوزت خط النار، وأحرقت كل الخطوط الحمراء!.. فضحت المخبوء تحت الكنايات والمجازات، وأشرت بيدي كاملة إلى المجرم الحقيقي.. قاهر المستضعفين، وآكل حقوق المستخدمين، ومغتصب أرزاق العاملين والعاطلين!.. وفضحت المتواطئين مع الحكومة، والساكتين على الجريمة، من المناضلين والزعماء النقابيين، المتاجرين بقضايا الفقراء والمستضعفين! طالبت الناس بالثورة والانتفاضة ضد التزوير، وتحطيم الأصنام المستعبدة للجماهير!.. ثم مددت يدي في الهواء أشعل الشرارة الأولى، ولعنت الجبن والجبناء!.. وأصْدُقُكم سادتي: لقد شاقني السجن ساعتها!.. وأخذني الحنين إلى أيام الاعتقال! ذلك فقط لسبب واحد هو ما يشعر به المعتقل ـ على هامش العذاب ـ من لذة الانتصار على الطغاة الذين اعتقلوه، ومن نشوة الانتصار على الخوف الذي يعتقل الآلاف والملايين! فإذا به ملك متربع على عرش مملكة الظلام!.. تلك رغبة مجنونة لتفجير انقلاب على عرش المناضلين الكَذَبَة!.. وللناس فيما يعشقون مذاهب!

... كان وجهه يغرق في لهيب خِطابي فيسود من شدة الاحتراق!.. كان يرى بأم عينيه مجده الذي بناه من كذب وبهتان، وقضى في تشييد صروحه سنين عددا! يتهاوى على الأرض كالجمل المعقور، إذ يخر من هول الطعنة يشخر ويتخبط في دمه!..

أما هي فقد كانت تنظر إلي في انبهار وانشداه، ثم تنظر إلى صاحبها نظرات تتأرجح بين الإشفاق والاحتقار!.. وأما المريدون فقد

كانت عيونهم تسبق إلي بالبيعة والتسليم!.. حتى إذا أيقنت أني فريت أوداج ذبيحتي، وأنهرت دمها، فمدت أرجلها خامدة بلا حركة، واستيأس الناس منها أن تقوم ثانية؛ أعدت سلاحي إلى غمده بهدوء، وجلست على مقعدي أستمتع بأصداء كلماتي، تتردد تصفيقا لم ينقطع حتى أخنى على البقية الباقية من كل وهم؛ يمكن أن يسلي صاحبي بشيء من الأمل في العودة؛ إلى الحياة!! وهكذا كانت جنازة وكان ميلاد!

اختل تنظيم الجمع، واختلط الكلام.. فالرأس مصروع لا يمكنه أن يستمر. وتحدث قوم عن دم جديد، وتحدث آخرون عن زحف شامل ومعركة استنزاف!.. ثم وقفت من جديد وأنا أهدئ الناس بكفي، وتكلمت بصوت هادئ منخفض، مصوبا طلقتي هذه المرة نحوها:

ـ مهلا أيها السادة!.. إن أي دم جديد، أو أي زحف شامل، أو ثورة أو انتفاضة؛ لا يمكن أن تكون إلا إذا كان على رأسها رجال!.. الرجال وحدهم هم الذين يناضلون بأرواح مقاتلة!

وما أن أنهيت عباراتي حتى تحركت في مكانها، وانتفضت مثل الفزّاعة! صرخت وهي تشير بكل يدها نحوي:

ـ هذه إهانة للمرأة!.. هذه ردة إلى الخلف! ألا تسمعون؟ الرجال وحدهم؟.. هذه عنصرية!

واستمرت تنظر إلي.. تنتظر ردي، وكأنها تخفي شوقا آثما إلى خصامي!.. شعرت بضعفها فلم أشأ أن أقاتلها. قلت ـ محافظا على هدوئي وانخفاض صوتي ـ:

ـ أنا قلت الرجال ولم أقل الذكور!.. فلا مجال لتفسيرخطابي

بمفهوم المخالفة!

وأمعنت في إدخالها إلى تيه من الحيرة، فقلت مسترسلا:

ـ الذكور أرقام منتشرة في كل مكان، لكن الرجال هم القليل!

أسكتني والدي بإشارة حازمة من يده ثم قال:

ـ الخيل يا بني معدن شريف، فهي وحدها تنتخب للقتال والبارود، أما البغال والحمير فلا تصلح إلا للحرث والدراس!

ورأيت بأم عيني الجسر الأسطوري الممتد ما بين ابن عربي واسبينوزا ينهار في قاع سحيق، تحت صاعقة الاختلاف الفطري! ورأيت أبي يطل كالصقر من عل بعينين ثاقبتين.. والغبار المتصاعد كالبركان يفضح أكبر كذبة في التاريخ!

ولذلك كرهت حمارنا يا سادتي الكرام، فرغم حرصي عليه وتقديري لحيوانيته البريئة؛ إلا أني كرهت حماريته!.. فالحمارية فيه خُلُقٌ خبيث يجمع بين الجبن والغدر. فهو أكثر ترددا لعبور قنطرة صغيرة، أو اجتياز خندق ضيق. يحمل قنطارا أو قنطارين من الفصْفصَة، أو التبن، أو التمر، ثم يمضي ذليلا لا يئن ولا يحتج! ولكنه ما أن يشعر أن راكبه إنسان حتى يستثقله مهما كان خفيفا، ثم يختبره: يضرب قفزا في الهواء برجليه تارة؛ وبيديه تارة أخرى حتى يصرعه أرضا! فإن وجده ثابتا لزقا، أو أنه عالجه بعصاه حتى استقام، استسلم له وأخبت إخبات اليهود بحائط المبكى! ومضى به إرخاءً وتقريبا!.. حتى إذا كان أول نخلة عاقبة القسائل والأشواك؛ اقترب منها مسرعا فاحتك بها احتكاك المجروب، فلا يفارقها حتى يكون قد

أصاب صاحبه من أشواكها وخزاتٌ من الغدر اللئيم! هذا إذا نجا من صرعة مفاجئة تنشره مثل القميص الممزق داخل أدغالها!..

ولئن شرب الحمار فهو ماكر في شربه! يمد فمه ويجمع شفتيه الغليظتين ثم يضعهما في الماء بكبرياء الحمير، يسف سفا صامتا ويرشف مثل الشعراء!.. ولو أن بقرة شربت إلى جانبه لسمعت لها صفيرا وزفيرا، ولرأيت لعابها يسيل خيوطا تتردد ذهابا وإيابا، بين فمها ومنخريها من جهة، وبين سطح الماء أو الساقية من جهة أخرى! حتى قالوا: اشرب بعد الحمار ولا تشرب بعد البقرة! وما هي إلا خدعة الحمار ومكره، ألا ترون أن الخير كل الخير معها وأن الشر كل الشر معه!؟

وتذكرت أمر أبي، فهرعت أجمع الجريد اليابس المتناثر في البستان لأجعله حملا عليه ثم أدخله قبل الغروب!.. كان الوقت أصيلا، وكانت الهداهد تهدل بشجى الأنبياء، هديلا، ولا كناي المتيمين! أقربها إلي كان على غصن الورد الشائك، المتدلي من شجرة الورد البري الوحيدة في البستان.. هو هدهد ككل الهداهد، لكن ميزته أنه قريب. والقرب يا سادتي لغة من لغات القلوب!.. نظرت إلى تاجه الحناوي الجميل، المنتهي عرفه بضفيرة رقطاء بين بياض وسواد؛ فذكرني بتاجها.. يمد جناحيه تارة ويقبضهما، فإذا الألوان، تصطف نقطا ولطخات طاهرة، لتسبك الريش في فتنة تعلو - ببهائها المتردد بين خفاء وظهور - على الوصف والتصنيف! فذكرني بتردد إزارها الستار، ترددا يحير العقول!.. منقاره الأسود الأنيق الذي كان يوزع لها تغريدة الصباح، ها هو ذا يمتد نحوي منحنيا كانحناء السيف، دقيقا حادا مثل

القتاد!.. آهٍ يا سيدة البستان! أي جناية اقترفت حتى ألاقي كل هذا العذاب!.. هذي المدائن قد خنقن روحي بروائحهن النتنات، وأصباغهن القذرات! لا سماء لهن ولا نجوم، وإن أبصرن فبلا عيون!.. لا واحدة منهن تمد يدها لي إلا وجدتها قنطرة مهترئة مرت عليها آلاف العربات! أول الكلام منها لفحة من دخان!..

آه سيدتي.. أشهد أني تعبت! فقد شاقني الريح المُخْبِتُ على سهوب الشيح، يملأ جوانحه بأرواحه، ثم يهب لينشرها غير بعيد على قافلة المحبين! فإذا مجنون بني عذرة يسرب بين تباريح الرمال، وظلال الدلال، أشعث أغبر، يخطو حافي القدمين ممزق الجيوب، مباح الجوارح للجوارح، ممدود الأنف إلى أمام، كأنه لجام، يقتفي به أثر الذين - قيل: - مروا من هنا.. أو قيل: ضربوا خيامهم أمس عند الأصيل، قرب هذا الغدير.. ثم فكوا أوتادها وأسبابها وراحوا!.. ولم يبق من آثارهم إلا القصائد والعفاف!

ها أنا ذا سيدتي ألهث بين جداول من سراب، أشرب من هنا وهناك فلا أزداد إلا عطشا! فارحميني.. تجلي على رذاذا من رضاب الشجر، واسقني من كؤوس النعاس لعلي أنام!.. هذه الصحراء يحيطها بستاني، فانزلي منها حيث تحبين.. إن أغصاني لك حامية!

وفجأة يا سادتي.. نهق الحمار؛ ففرت الأطيار!.. قال لي:

- أي وقاحة هذه التي جرأتك على ترأس النقابة؟ ألم تعلم أنك تعمل ضدي أنا؟

كانت عيناه - رغم ضيقهما - قد جحظتا تحت نظارته، وامتدت

رأسه الصلعاء، تجر عنقا فاحش القصر إلى أمام، فانضافت بشاعة شكله إلى بشاعة غضبه.. كنت مستعدا لخوض العاصفة، لكني أرجأت المبارزة إلى الجولة الثانية، فقلت في هدوء:

ـ العمل النقابي حق دستوري لكل المواطنين!

واستظهرت عليه نصوصا قانونية كنت أحفظها منذ العهد الأول.. كنت أرى الخوف الحقيقي يكمن وراء غضبه، خوفه ليس من الإضراب، أو من غضب المناضلين، وإنما خوفه كان من الهزيمة أمامها! كان يخشى ألا يكون في مستوى الدفاع عنها، فتهوي به الريح في مكان سحيق!.. ولذلك فقد كانت وراءه منتصبة كالحية، ولسان حالها ينشد:

نحن بنات طارقْ ** نمشي على النمارقْ

إن تقبلوا نعانــقْ ** أو تدبروا نفــارقْ

كانت المعركة بالنسبة إليهما مصيرية، فقد كانا يعلمان أن مضمون الملف يدور حولهما: مشكلة الفساد الإداري المستشري في المؤسسة، بسبب سيطرتها هي ـ من ورائه ـ على كل شيء، وتحكمها في كل شيء: التعليمات، والترقيات، والمنح... كان الجمع العام النقابي الأخير قد خلق جرأة جديدة في النفوس.. فقالوها لأول مرة في تاريخ الإدارة: السكرتيرة!

قال لي مستعطفا لكن بلهجة الامتنان المتعالي:

ـ ألم نرقك دون كثير من أصحاب قسمك؟

فرددت بحزم أقطع عليه طريق الإغراء:

ـ ذلك حقي نلته، وأنا الآن أطالب بحقوق الآخرين!

أحس باستعدادي للمواجهة المباشرة، فحاول الهجوم بخطة أخرى، قال وكأنه قد عثر على برهان الإدانة القطعي:

ـ بلغني أنك تهين المرأة في خطاباتك ـ وأشار برأسه تجاهها ـ ثم قال:

ـ فأي نقابة متخلفة هذه التي تمارس؟

وعلمت أن خبر مناوشتي الصغيرة مع سيدة النقابة؛ قد وصله عبر مناخره المبثوثة في صفوف المناضلين.. فأحب أن يجعل ذلك جُنّةً يناقش من ورائها مشكلة السكرتيرة. أراد أن يخدعني، فقررت أن أنخدع له! فذلك أقصر طريق عندي لإهانتها بين يديه، فأكون قد ضربت الكلبين بحجر واحد!.. هزيمته عنها تعني نهايته السوداء على يديها!

أجبت محافظا على هدوئي البغيض لديه:

ـ شأن نقابي داخلي.. ولكن لأريحك: لا أحب أن يكون فريق عملي نساءً!.. ـ ثم أضفت وأنا أنظر إليها وهي تكتب محضر الاجتماع ـ: المرأة عندي لا تصلح لمهمة رجولية!

ووجدها فرصته الثمينة.. فهو عضو في جمعية نسوية ذات عجيج وأزيز!.. نعم وجدها: موقف متخلف، متطرف، يحمل كل أشكال الإدانة.. ملف قضائي يصلح إهداؤه لكل الجمعيات النسوية، الحاملة لواء حرية المرأة.. دعوى جاهزة ضدي حجتها الاعتراف.. والاعتراف سيد الأدلة!

اعتدل في أريكته ملقيا كل ثقله إلى وراء، ثم قال بصيغة

متهكمة:

ـ هاها.. لا تصلح لمهمة رجولية!؟.. وما هي المهام الرجولية في نظرك؟

ـ كل شيء فيه ريادة، أو قيادة، أو نضال، أو قتال!.. وقس!

ـ أنت تعترف بهذا كله إذن؟

قلت وأنا أتابعه في نصب شركه الوهمي:

ـ نعم وزيادة!.. هذا رأيي أقوله في كل مكان!

ـ ولأي شيء تصلح المرأة إذن؟

كان يسألني والفرحة تكاد تنفلت من حرفي فمه.. فقد كان يحس بنشوة الانتصار بعد فزعه الشديد.. فها هو يفلح في قلب طبيعة الاجتماع من استجوابي له إلى استجوابه لي.. المدعى عليه يتحول إلى مدع وتلك أمارة الانفراج، والانفلات من قبضة ملف السكرتيرة!

كانت رغبتي المجنونة قد عاودتني.. فقررت مواطأته على قلب مجرى الحوار، رغبة حمقاء، قد تعصف بالملف النقابي، ولكنها مهمة بالنسبة لي.. فعلى الأقل سأحقق من خلالها شيئا لي: هو إهانة السكرتيرة بين يديه، وإذلاله هو أمامها، وليكن بعدها ما يكون!

ودخلت في حوار داخلي لأقنع ضميري: أليس من المكاسب النضالية أن تذل طاغية؟ إنها البداية لرفع الظلم، ورد الحقوق إلى أهلها. وإنما كان الظلم بسبب وجود الطغيان، و الطغيان لا يقوى إلا في شعب ذليل، يحرص على العيش وليس على الحياة! إذن فعملي هذا يسير في الاتجاه الصحيح..

نظرت إليه باحتقار وهو رازح أمامها مثل حارس الخمارة، فأرسلت صاعقتي:

ـ نعم يمكنها أن تصنع أشياء كثيرة، أنت تعرفها جيدا: مثلا يمكن أن تكون راقصة، أو موديلا جسديا للتصوير الفتوغرافي، أو مادة سنيمائية مشهية، أو لقطة إشهارية حية لشيء ميت، أو بضاعة معروضة في علبة ليل، أو مصرفا اقتصاديا لتسويق أدوات التقبين، أو خطوات متكسرة لعرض آخر موضة الأزياء، أو فنا إغرائيا يتبارى لتحطيم أرقام قياسية، في مسابقات ملكات الجمال، أو مصرفا للزائد الشهواني رهن إشارة المرتزقة؛ تسلية لهم عن المصير المتوقع، أو مخدرا سياسيا لمعالجة المشاكل المستعصية على المخابرات، أو غواية صارخة في الشارع لمحاربة التطرف الديني، أو ديكورا لتزيين المكان، وترطيب أجواء العمل.. أعني: سكرتيرة!.. أو

وانفجرتْ باكية!.. خبطت القلم على ملفها ثم قامت مهرولة خارج المكتب!.. أما هو فقد فغر فاه لحظة ثم صرخ منتفضا في أريكته:

ـ كفى!.. هذه وقاحة!.. ألا تستح؟

وضحكت.. ثم قلت محافظا على هدوء صوتي:

ـ حرية المرأة.. حقوق المرأة.. ومتى كان الحياء بندا في ملفات جمعيتكم!.. ثم لا تنس أنا عضو في النادي!

ـ أنت مطرود! أنت تخون مبادئ النادي!

وجحظت عيناه الصغيرتان حتى قاربتا الانفجار!.. كان يعرفني وكنت أعرفه! وهذه هي مشكلته الكبرى!.. قلت له وقد لاحظت السواد

يزحف على وجهه:

ـ أنا لم آت عندك لمثل هذا.. فسلني شيء آخر تماما. أنت أردت هذا الحوار فسايرتك!.. وأدخلت على صوتي غنة تربيت وإشفاق!.. فلم أشعر به كيف انفجر هو أيضا باكيا، واستدار بأريكته موليا إياي ظهره! وانكفأ على كفيه مثل طفل صغير!

دهشت.. احترت.. ارتبكت.. لم أدر كيف وقع ما وقع.. ولا لماذا وقع! وصرت أنظر إلى كفي متسائلا.. هل جنيتُ جناية؟ كيف يبكي الرجل كما تبكي المرأة؟ ـ أو على الأقل ـ كيف يبكي الذكر كما تبكي الأنثى؟.. عجبا! فما الفرق بينهما إذن؟

أغمدت سلاحي ونهضت، ثم استدرت بخطوة هادئة.. لم أكن أتوقع أبدا أن الجدار الذي راهنت على خرمه هش إلى هذا الحد! ألأنه ألف العيش تحت قبضة النساء فقط؟ لست أدري!.. وإلا فما معنى أن يبكي أحد لدى مواجهة الرجال، إلا أن يكون... ياه! لو كنت أدري أني سأبارز امرأة ما أخرجت سيفي من غمده!..

وانصرفت وأنا ألعن النقابة التي أوهمتني أني سوف أحارب رجلا!

***

.4

كانت أختي الوسطى تساعدني لطرح شبكة القصْقَصَة من على ظهر الحمار، فاستغلت فرصة انشراحي وسألتني:

ـ يقولون: إن النساء عندهم يحلقن شعورهن مثل الذكور؟

فأجبتها على الفور:

ـ والذكور عندهم يرخونه خلف ظهورهم مثل النساء!.. تصوري إن منهم من يود لو كان امرأة!

قالت بفزع:

ـ ويلهم!.. ماذا تقول؟

ـ ما تسمعين!

قالت وهي تستزيد من عجبها:

ـ أصحيح أن الناس هناك يسكنون في الصفيح مثل الجن؟

فأجبتها باقتضاب:

ـ نعم.

ـ عجيب! منازل من صفيح! لا رياح ولا أنواء يمكن أن تنال منها!

ـ بل هي أوهى من أعشاش اليمام!

ـ ولكنها من صفيح!

ـ ولذلك هي كذلك!.. أرأيت؟ البيوت الأقوى هناك هي بيوت

الزجاج!

ـ سبحان الله! كل شيء عندهم مقلوب!.. فلا غرو أن يأكلوا فاكهة الصيف في فصل الشتاء ـ كما زعموا ـ

ـ هذا صحيح! فأولئك قوم فقدوا معنى الزمن.. لاشيء عندهم اسمه الفصول الأربعة!.. ولا الليل ولا النهار! مات الوقت هناك وصار قطعة من الصفيح، لا شعور فيها ولا إحساس. كل شيء إنما يقدر بقيمته في السوق. وكل شيء عندهم يقوم على الكذب، حتى الأشجار إذ تثمر والنباتات!.. الكذب هو الحقيقة الوحيدة النافقة!

ـ عجبا وأي ذوق للبطيخ في عز الشتاء؟!

ـ ذوق ألوان التفين على وجه العجوز!

ضحكت ثم سألت وكأنها لا تصدق ما تسمع:

ـ سمعنا أن الكلام عندهم يباع، فلا هم يسلمون ولا يردون السلام! إلا أن يتقاضوا على ذلك مالا؟!

ـ والقبور أيضا.. لا يجوز لأحد أن يموت حتى يشتري قبره!

ـ كيف! يشتري قبره؟

ـ نعم!

ـ اللهم حسبنا الله ونعم الوكيل!.. هذه من علامات الساعة! نسألك اللطف!

وضربت كفا بأخرى ثم سألت باستنكار:

ـ وتقول: هؤلاء مسلمون مثلنا، كيف؟

- نعم هم مسلمو الغرب!

***

كانت الأخبار تنقل تفاصيل الحدث وتزيد! كالأضواء المتداعية في كل مكان.. وصرت في فترة وجيزة رمزا من رموز النقابة المتميزة.. ها هو ذا صرح كاذب آخر، أبنيه على أنقاض الصرح القديم! بهرت به المريدين المستضعفين، وأغظت به المنافسين العاجزين! فكنت أسطورة جديدة من أساطير الإعلام، والإشاعات المضخمة! لقد نجحت في إفزاع الجبناء.. فانخدع بي الأقوياء، وصرت بطلا!

كنت أمد رجلي فوق كرسي فارغ أمامي.. جالسا منفردا بمقر النقابة، أتأمل حال الزحام المتدافع على المناصب والألقاب! استجداء بأبواب التافهين والجبناء، وكان يمكن أن ينال المرء ما يريد بصفعة يسددها لرئيسه فينال حقه وزيادة!.. وتذكرت بداية حالي في الوظيفة، وكيف كنت غبيا إذ سلكت طريق إرضاء السكرتيرة للوصول إلى الترقية! فضحكت! ها هي ذي الآن أمامي ضعيفة تستجدي! هي وكلبها!

أحسست بخطوات تنقر الأرض من خلفي.. فاستدرت لأرى الداخل إلى المقر.. فإذا بي أراها تتجه نحوي في خطى تتأرجح بين الذلة والكبرياء!.. إنها سيدة النقابة.. وتذكرت يا أحبتي سيدة البستان!.. أي عذاب هذا الذي يلاحقني في كل مكان مثل طالع السوء؟ هذا جملي يركض في الصحارى لاهثا، تكاد كبده تحترق عطشا، وكلما أشرف على جدول عذب يترقرق في واحة من الخضرة والظلال؛ تبخر بين يديه سرابا

متيددا في اللهيب، فتهرب معه أشباح الأشجار والأطيارا ثم أركض في كل الاتجاهات الرطبة لعلي أجد أنداء البشارة، فلا أشم إلا روائح الحمىء تفور من المجاري المسنونة، إذ تقذف بها مدن النجاسة في كل مكانا..

ألا يا أيتها الأشباح المقبلة نحوي تغريني بالجيف النتنة.. اغربي عني! فالقيء يكاد يذرعني بسبب اختناق أوردتك بالدماء العاهرة المتخثرة!

جلستْ إلى طاولتي وهي تبتسم في دهاء الحيات.. ثم أقبلت علي قائلة:

ـ عفوا.. منذ مدة وأنا أبحث عنك.. آ..

وتكلمت بكلام كثير عن مشاكل النقابة وتخاذل المناضلين.. حتى إذا مضى من الوقت غير يسير! اقتربت من صلب الموضوع فقالت:

ـ وددت لو تشاركنا بمساندة نقابية للحزب!

فاستظهرت موقف النقابة التقليدي:

ـ النقابة حليف استراتيجي لكل الأحزاب التقدمية.

ـ إذن لا مانع عندك من إلقاء خطاب في التجمع؟

ـ طبعا.

ثم استطردت ثانية بلغو طويل.. تحدثت فيه عن سمعتي الطيبة ـ زعمت ـ ومواقفي مع رؤساء الإدارة، وتسببي في فضح خروقاتهم.. وتحطيم أسطورة السكرتيرة المتحكمة في كل شيء.. وأشياء أخرى من اللغو لا أجدني أذكرها.. كانت تتكلم.. وكنت أبحث في وجهها عن مآل الكلام.. أكُلُّ هذا من أجل خطاب في مقر الحزب؟ محالا.. ولم تدعني أجهد في تأملاتي كثيرا، إذ شرعت تنحدر إلى نهاية الحديث وهي تجمع

بعض أوراقها، وتتأكد من إغلاق محفظتها.. ثم قالت في رقة يخالطها جد:

- سأكون مسرورة لو تتفضل بقبول دعوتي للعشاء بمنزلي.. ليلة المهرجان الخطابي..

ودب التلعثم إلى قلبي!.. لكنها أردفت قبل أن يصل إلى لساني:

- أرجو ألا تتردد في القبول.. سيكون زوجي في انتظارنا بسيارته خارج مقر الحزب، فلن تجد مشكلة في التنقل ذهابا ولا إيابا.

وأحسست بنوع من الراحة ساعتها، ثم تكلمت رغبة في تنفس الصعداء، للاستراحة من روعي ليس إلا:

- سأكون سعيدا بالتعرف على زوجكم.



كان الليل قد أدخلني في دوامة من التوجس والخوف اللذين لا أعرف لهما سببا دقيقا.. هذه الأضواء المتموجة في الشارع تنبض مترددة مثل قلبي في حيرته تماما!.. السيارة من النوع الفاخر جدا، كانت تخرق ظلال الليل بسرعة، وأنا متكئ وحدي في المقاعد الخلفية، أما هي فقد كانت تركب إلى جانبه في المقعد الأمامي.. لم تتكلم كثيرا فقد اكتفت بتقديم بعضنا للبعض الآخر بكلمات مقتضبة.. وأشارت إليه آمرة بالانطلاق! أحسست من الوهلة الأولى أنها هي التي تقود، رغم أنه القابض بيديه الهزيلتين على المقود! فعرفت أني ذاهب إلى عالم لا يمكن التكهن بعاقبته!

عند باب عريض تزينه ورود ذات إيحاء فرنسي؛ خفقت أضواء السيارة مرتين؛ فانفتح على مصراعيه! وظهر رجل بلباس أزرق يوحي بأنه حارس مباني، فجعل يدفع دفتي الباب إلى غايتهما.. واشتعلت الأنوار في كل مكان! فبدا العشب الأخضر ممتدا في الأضواء القصيرة حتى اختفى في الظلمة البعيدة!.. واستغربت ذاتي في هذا المكان: أفي منزل مناضلين أنا أم في قصر وزير؟.. أيكون زوجها هو الذي...؟ وتذكرت لقد قدمته لي: إنه مجرد مدرس للغة الفرنسية!.. قالت، في مؤسسة البعثة الفرنسية.. ولكن!.. يستحيل أن تكون حوالته مصدرا لكل هذا الترف!

في قاعة ممتدة امتداد موائدها وأضوائها الرقراقة بألوان شتى.. كل شيء فيها يميل إلى الإغراء الحالم: الألوان الفاترة الساحرة، الموسيقى الهامسة الآثمة، الستائر الشفافة المتدلية ضفائرها في دلال، اللوحات المطلة من خلف غوايتها تناديك من هنا وهناك .. جلست كالطير الغريب مبهوتا، أنظر إلى الفاكهة العارية في مجون، والشراب الضاحك في استهتار..! قالت لي بعدما أودعتني سجنها الساحر:

- أرجو أن تنتظر لحظة.. بعد قليل سيلتحق أضياف السهرة..

واعتذرت بكلمات ثم غابت.. لم يمض وقت كثير بالفعل حتى دخل علي رجلان، سلما علي من بعيد واتجها إلى العمق الآخر من الفضاء المجنون.. كان أحدهما يذكرني بشيء ما، وأما الآخر فلم يثر أي شيء من فضولي... يارب.. أين رأيته؟.. وقطع علي تذكري دخول رجل آخر، فازدادت حيرتي، هذا أيضا وجه ليس علي بغريب!.. ودخل آخر معه ثلاث نسوة، تسبقهن قهقهاتهن إلى الصالون.. كان ذا هيأة

ارستقراطية رفيعة جدا، يفيض النعيم من وجهه، في وسامة تكاد تخرج به عن حد الذكورة!.. ثم دخلت مجموعة أخرى، كان بعضهم يحمل الهاتف النقال، يتوسطهم رجل ذو طول ظاهر، ينظر بعينين يشع منهما ذكاء خبيث، يعقد عبسته إلى أعلى، لكنه يبتسم إلى من ينظر إليه، ثم يستعيد عبسته بسرعة عجيبة! وفي لحظة وجيزة تبين لي أنه سيد مطاع، فالكل ينحني له ويخدمه.. وخالطني شيء من الخوف، فالجو يشعرني بأني وسط عصابة!

وما هي إلا دقائق حتى امتلأ الصالون بالهرج، واختلطت أرواح العطور الشريرة ببعضها، فكان منها تركيب عجيب، يوحي بالغثيان بقدر ما يوحي بالغواية!.. فجأة سمعت تصفيقا رفيقا.. كان الناس يلتفون حول الموائد في صفين متقابلين، فاتجهت مرتبكا إلى الصف لأنتظم كما انتظموا.. ثم انطلقت من أقصى طرف الصف المقابل كلمة سبقت إليها أذني، تبينت بسرعة أنها أصداء صوتها، ثم استقر بصري في النهاية عليها، إنها هي ترحب بالحضور.. كانت امرأة أخرى تماما!.. شعلة من نار ترتفع في هدوء بموقد ماجوسي.. والرهبان لها ركوع!.. عجبا أهذه هي المناضلة المستضعفة الكادحة؟ أي دور رهيب تؤديه الأرستقراطية المتنفذة في هذا البلد؟.. ربما كان من سوء حظ يسارنا أن تخبويته ليست من قبيل (المثقف العضوي)؛ بقدر ما هي (بورجوازية متوسطة) ذات طموح آثم! أليست هي الطبقة الملعونة في التلمود الماركسي؟

كان التصفيق على كلامها مشفوعا بكلمات فرنسية، تتفتح مثل الورود البلاستيكية هنا وهناك!.. وأنا وحدي يا سادتي أشعر كأني عار

تماما بين قوم لابسين! أو كأني مجرم بين قوم طاهرين! أدري أنهم هم الخلاعة الحية فوق الأرض، لكن أنا هكذا كان شعوري بينهم! ربما لأن الإحساس بالوحشة، والغربة النفسية قد أشعراني بالاختلاف. فكان ذلك الشعور العجيب! وكأنه لا يحق لي أن أختلف.. فالدنيا كلها هكذا إلا أنا!.. ربما.. أو لأن... والخلاصة أني لست أدري!

اختلطت الأشباح وتداخلت.. كأس في الوجه وأخرى في القفا!.. وهي تطوف كالمخرجة في قاعة العرض المسرحي، توزع كل شيء على كل الناس!.. هذه حوافر قصر الإليزي تدوس أسطورة الاستقلال، وتبصق في وجه التاريخ الكاذب! من قال إننا قد خرجنا؟ بل الآن فقط يمكنكم أن تقولوا: إننا قد دخلنا! نسقيكم من خمورنا، ونحميكم بعهرنا ولغتنا!..

حينما اقتربت مني، نظرتُ إلي فاصطنعتْ حالة انتباه قصوى، وكأنها استيقظت بُعَيْدَ تذكر مفاجئ! قالت:

ـ آه! ما أنصفناك!.. بقيت وحيدا!..كان يجب أن أعرفك على مجموعة من الأصدقاء!

ـ لا.. لا ضير أنا في كامل راحتي.

وأخذت بيدي فشرعت تطوف بي على الأقطاب والأوتاد والأبدال!.. هذا صاحب البركات، قاضي الحاجات، سيد في الحزب متنفذ في السلطة!.. وهذا صاحب الكشوفات والأحوال، وزير القيل والقال وكثرة السؤال، من أطاعه أصاب ومن عصاه خاب!.. وهذا رأس النقابات وصاحب القرابات، يسكن القصور ويسد الثغور!.. وهذا سيد الأعمال، واهب المال وصانع الأقوال!.. ثم جاوزت بي مجموعة تشبه أن تكون من

رجال الأعمال.. ربما لم يهمها أن أتعرف عليهم، ثم وقفت بي فجأة وقالت:

ـ هه! وهذا:...

وعرفته يا سادتي! إنه اليهودي ـ أعزكم الله ـ كاهن الثقافة والإبداع، يندس أيضا في السياسة مع أهل السلطان، كاهنا لا يشق له دخان!.. عرفته وعرفني! فتبسم إلي ساخرا ولم ينبس بكلمة، لكن عينيه ـ بالتأكيد ـ قالتا: أنا هنا فمت بغيظك أيها الراعي البدوي! بل أنا في كل مكان!..

لم أصدق.. لكنني صدقت!

فكانت مفاجآت.. لم تخطر على بال! وعرفت أصحابي، فأحسست بالرهبة بقدر ما أحسست بالرغبة. أليس هؤلاء المردة الكبار هم الذين سقوا سقراط السم فأردوه قتيلا؟ ومن سواهم قطع رأس يوحنا المعمدان، وسعيد بن جبير، وأطلق الرصاص على مالكوم إكس، وفتحي الشقاقي؟

تلك وجوه إذن عرفت صورها من قبل، أو في الصحافة والتلفزيون! أو ربما تذكرتها على طريقة أفلاطون. لست أدري.. المهم أنني كنت أعرفها جيدا، لكن أي خاطر هذا الذي يقدر أن ينبئني بأنهم هم الذين يتسكعون الساعة أمامي؟!..

هذا مقام التحرر من أوهام فرنسيس بيكون! لولوج توهمات الحارث بن أسد المحاسبي. فأيهما أصدق؟ أحلام النوم، أم أحلام اليقظة؟.. تلك أول مدارج المعرفة يا ولدي، فتوهم!

ونظرت إليها .. يا لها من سيدة رهيبة! هذه إذن ليست سيدة

النقابة فحسب، بل هي سيدة كل شيء!.. وأحسست بنشوة الانتصار الآثمة، فأنا الآن في مركز القرار!.. هنا عاصمة العاصمة، هنا مركز السلط.. من هنا تسلط الشياطين أصناف الجحيم على المستضعفين!.. ونظرت إليها مرة أخرى، فأحسست بالفزع يا سادتي هذه المرة!.. كان كل شيء فيها يدعوني للاستسلام! الماء والنار، والظل والحرور!.. هذا منبع النهر الجارف، هذا شلال الخمر الصافي.. خلف تلك الغلالة الرطبة إذن؛ تكمن كل أسرار الدنيا!.. ها هي ذي امرأة تحكم العالم السفلي بالحمى.. تلفح المستكبرين فإذا هم بين يديها طائعون مذللون، وتنفح المستضعفين الثائرين فإذا هم شاخصون مسحورون، مستسلمون لهذا الأريج المخدر الرهيب!.. فأضفت إلى معلوماتي:

وحاكمة أيضا!... تلك كلمة كان ينبغي أن أضيفها - في حواري مع رئيس الإدارة - إلى وظائفها الرئيسة!.. لكنها حاكمة ساحرة، تحكم بالماء والحمى! .. لا يهم، المهم أنها حاكمة وكفى.. فالمرأة هي السلطة!.. وتلك حقيقة لا يمكن إنكارها!

لكن ما المراد مني أنا؟.. أحقا أستحق كل هذا الإكرام؟ عجبا! وكيف لصعلوك مثلي أن يكون في هذا المكان!.. أيمكن أن أكون مطلوبا لمهمة ما؟ من لدنها، أم من لدنهم؟.. لست أدري.. وشعرت بالصداع يفلق رأسي.. خوفا أو فرحا.. لست أدري! ثم...

ثم اختطف القنديل فجأة، فخرجت من عالمي كالمطرود إلى عالمهم.. سمعت عبارات الاعتذار بالأشغال عن مهمة ما، ورأيت شبح أبي وهو يميل برأسه إلى جهة الصديق سائلا:

ـ وأنت؟.. ويلكم! هذا الفقيه. كيف ترفضون مداولته؟

وانتفضت لذكر اسم الفقيه فزعا! خير.. ماذا يريد؟.. مداولة في ماذا؟ لم أفهم المقصود على التمام. وانحنيت على المهدي فسألته بخفوت:

ـ ما الأمر؟

ـ الفقيه طلب من الوالد مداولتنا على خدمة الساقية إلى الدور المقبل.

ـ آ.. نعم..

وفهمت سبب تهربهم من هذه المداولة بالذات.. فالساقية قبر تاريخي رهيب. لا يخلو عام يمر دون سقوط ضحية، أو ضحيتين من شباب القرية: صريعا تحت قناطرها.. العمل في أنفاقها المظلمة يعني التعرض لاغتيالها الرهيب!.. الساقية ـ أو (الخطارة) كما يسمونها أحيانا ـ هذا الجدول الوديع المتدفق بهدوء على سطوح السهول الصغيرة، أو المتلوى بدلال بين غابات النخيل، يحمل الحياة إلى فضاءات الزرع والضرع.. تنظر إليها فترى فيها السحر كله يترقرق مغنيا صباح مساء، يغمر ذؤابات النخيل كل فجر بضباب خفيف، لا يلبث حتى يتحولّ ـ مع الشروق ـ إلى رذاذ لطيف من الأنداء، سابح في فضاء الخضرة، يمسح أجنحة اليمام المعشش على الجريد، فيصحو نشطا للتغريد!..

ويجري الماء النهار كله يسقي الحياة، حتى إذا رق الأصيل جمعت الساقية خيوط الشمس إليها برفق، وعزفت لها سمفونية الغروب: تراتيم من أهازيج الدُّبور، توقعها ظلال السعف في الماء الساجي.. حتى إذا

ذابت الشمس تماما، وهبت الظلمة الأولى على حقول الزرع بالبرد؛ انطلقت الضفادع من جوانب الساقية بملأن الليل بنقيقهن الصاخب، فإذا صداهن بين النخيل أشباح تروح وتجيء، حتى آخر الليل.. فيا ويح طفل لا يؤوب قبل الغروب!

تنظر إلى هذه السواقي فتوقن أنها تصنع عالما سرمديا من الحركة النبيلة هنا؛ لكن لا يخطر ببالك أبدا أنها تنبع من كهوف الموت المظلمة هناك! تلك المسماة عند ملاكي الخطارات بالقناطر.. آبار مصطفة في اتجاه الجبل يصب أعلاها في أسفلها، عبر نفق مظلم تحت الأرض، يعبره الفلاحون المالكون لمائها أوالمستخدمون عندهم، لاستصلاح مجراها، وتعريته مما ترسب به من رمل وطين، أو لإضافة (الجديد) باصطلاحهم: وهو آبار أخرى تحفر إلى أعلى، ثم تشرك (بالقديم).

كانت أمي لا تفتر تسأل اللطيف، كلما كان قدر أحد إخوتي أن يدخل مجاهيلها.. لا أنسى كلمتها إذ سألتها في صباي عن سبب فزعها من خدمة الساقية:

ـ الخطارات مساكن الجن يا ولدي.. الداخل إليها بغير اسم الله مفقود، والخارج منها مولود!

وأحصت لي من ضحاياها عددا ممن تعرف ولا تعرف.

ورأيت بعد ذلك بعيني الفلاحين، عائدين مرات من خدمتها، يبكون شابا تدلى عنقه من على ظهر حمار، تسبقهم صاعقة العزاء إلى أهله وذويه!

وأفزعني صوت أبي وهو يزأر:

- إوا..؟ ماذا تقولون يا رجال؟

كانت تلك آخر عبارات التخيير.. وبعدها يكون القدر! يلقيها ببرودة دم: هي عليك يا فلان!.. ويشرع في صب الشاي! وحينئذ يتهيأ لها صاحبها صاغرا..

وتملكني الفزع يا سادتي! ليس لخوفي أن يسقط التعيين علي، فأنا أعرف أنه لن يكلفني بذلك؛ إذ هو يعلم أني لم أقم بهذه المهمة قط في حياتي.. ثم أنا ضيف الآن عندهم يحسبونني على أهل الغرب، سخرية واستضعافا! موظف حكومي، لا يعرف غير لف الأوراق، وبلع الأرزاق!.. وإنما فزعي يا سادتي كان من خاطري الرهيب، الذي جاءني الساعة ملحا أن أختار خدمتها بخدمة ساقيتها!.. ويحي! وأنا لا أعرف كيف تبدأ ولا كيف تنتهي هذه المهمة الرهيبة! لكن يكفيني سعادة أن يذكر اسمي عندها.. حتما سيقول والدها: لقد تطوع المحجوب للدور! فأي حظ عال ستتبوؤه لو شهقت خوفا عليك؟ أو لو دعت لك عن ظهر الغيب؟.. أوَ تراها فاعلة حقا؟.. لست أدري. لكن لا يهم.. وليكن من هول المهمة ما يكون! وليكن الموت! فالرجولة لا تصنع بالخطابات والكلمات، ولكنها فعل وإنجاز.

وسمعت صوتي وكأنه صدر من غيري:

- أنا أخدم الدور يا أبي!

وضربت أمي على صدرها شاهقة:

- الله ينجيك!.. أبدا.. ما ينبغي أن تذهب لها أنت!.. أنت ما خدمتها قط في حياتك!

والتفت إليها مهدئا:

- ولو يا أماه!.. عمل سهل وواضح. المهم أن الإنسان يحتاط من القناطر الرملية، الذين يموتون في باطن السواقي شباب يتنافسون في نبش جذور القناطر الرملية. فينبشون قبورهم بأيديهم وهم لا يشعرون!.. وربما لن أنزل إلى الآبار. أحسب أنهم سيكرمونني بعمل بسيط، كإدارة الناعورة مثلا.

وفغرت فاها ولها:

- إوا! الناعورة؟ أليست هي التي عقلت جدي من رجليه ثم أردته في قعر البئر قتيلا؟ الله يرحمه!

والحق أنها أفزعتني.. لكن كلمتي سبقت لدى أبي. فلو أتراجع عنها تصبح مادة سخريته بقية عمره!.. فختمت الحوار:

- لا تقلقي.. الأعمار بيد الله!

والتفت إلى أبي أسأله بيقين الفارس من نفسه:

- متى تكون الخدمة؟

أجابني كأنه غير مكترث:

- صباح الإثنين.

- ردوا على الفقيه بالإيجاب.

وهز رأسه موافقا بهدوء، وهو يحرص - كعادته - على ألا يبدي سرورا بالجواب.

المهدي وحده ابتسم وهو ينظر إلي بطرف عينه.. لأنه وحده كان

يعرف قصتي، وتهوري.

***

ها هو ذا الوحش الأسطوري يستقبلك فاغرا فاه إلى منتهاه!.. هنا رأس الخطارة، هنا مصرع الحياة! لست أدري لماذا رفضت إكرامهم لي بالعمل فوق الأرض، أقوم بالمهام التكميلية من مد وجذب، أو أدير الناعورة بهدوء.. واخترت بإصرار كإصرار الأعمى أن أنزل إلى أنفاق الظلام! نظرت إلى الذين سبقوني كيف كانوا ينزلون، حتى إذا وصلوا إلى قرار المصير، فكوا الحبال عن خواصرهم، ثم اختفوا مثل الأشباح في الظلام!

وتدليت بالحبل يا سادتي.. حتى غطستْ رجلاي في قعر البئر.. لم يكن عميقا، لكن الماء كان باردا، تماما كبرودة الموت.. أحنيت رأسي لولوج النفق، فسمعت الغناء تنبعث أصداؤه المتكسرة من داخله. كان أشبه ما يكون بصراخ الغريق!.. يخرق الظلمة جاهدا في إضفاء شيء من العبث على تجاذبات الطين، الصارخة بالهلاك من كل مكان!.. ثمة بصيص نور ضعيف، ينبض هونا من مصباح نفطي، علقوه بعيدا في عمق النفق. كان نوره الهزيل جدا يدل على ضعف الحياة بهذا المكان الرهيب.. لم يكن يستفيد من نوره أحد. وإنما كان تعبيرا يطمئن العاملين: إننا ما زلنا أحياء!

ودخلت عتبة الآخرة يا سادتي.. دخلتها أمشي على أربع، لا أبصر شيئا. تماما كما أجتاز العقبة بين النادي والشلال.

النور ضئيل وبعيد.. يبدو في الظلام المتحرك كفانوس الكهان. القفة المصنوعة من سعف النخل معلقة بالفأس الصغيرة على ظهري.. أتحسسهما فأشعر أني ماض إلى حفر قبري بيدي!.. وفجأة سمعت صوتا ينادي باسمي من الأعماق مرتين:

ـ محجوب!.. محجوب...!

ويمضي رجع الصدى لحظات كأنه إبر تشكني في أعصابي!.. وخطوت بقدمي أدب نحو المجهول.. شعرت بالعرق يتصبب من ظهري، فأحسست بالمقت لنفسي!.. ما أكره عندي من أن أراها في موطن؛ تنهار فيه تحت سياط الجبن! فصرخت فيها غاضبا:

ـ أنت اخترت!.. هذه هي الطريق إلى سيدة البستان! فهل تلتزم يا محجوب بهذا المهر؛ أم تنكص على عقبيك مدحورا؟

واستيقظ الوله المجنون بقلبي، ثم انطلقت أركض نحو الصوت الآتي من الأعماق.. حتى إذا اقتربت من القنديل نظرت في صفحة الماء العاكس أشعته، فهالني أن أرى سيدة النقابة مثل سمكة بورية، تسبح في الظلام عارية تماما، كانت تنظر إلي بعينين محمرتين!.. فصحت:

ـ ويحي!.. أنت مرة أخرى؟

قالت:

ـ ما دهاك؟.. ناديتك مرتين ولا تجيب!

وصرخت في النفق صرخة رهيبة، كادت تتكسر لها نوافذ الصالون!

هذا أوان الاشتعال يا ولدي، آه فمن لي بمقام المطر؟!.. حكموا

عليك بالموت حرقا ثم انصرفوا.. ها كل الدخان انفض الآن قصفا اللهيب!.. زوجها وحده بقي منبطحا على الأريكة العريضة مثل الكلب!..

نظرت إلي من الركن الآخر من الصالون، فاشتعل الجريد بقلبي!.. أشرتُ مستأذنا بالانصراف، فأشارت أن ليس بعد!.. ويلك! ها أنت ذا لأول مرة في حياتك تحكمك امرأة!.. كل فلسفتك الآن تتبخر! وكيف أدري في أي صقع من أصقاع الدنيا أنا الآن؟ وفي أي زمان؟.. تداخلت المرايا أمامي فما السبيل إلى الخروج؟

سألتها:

- ماذا تريدين؟

فضحكت وعيناها تغيبان وتحضران تحت تأثير الشراب، ثم قالت بدلال:

- ألا تدري؟.. إشعال النار الآثمة!

ويحي! وزوجها يسمع!.. ونظرت إليها متوسلا.. فأجابتني ببسمة تنبض بالإصرار! وأسلمت رأسي لكفيّ تضغطان عليه عسى أن أبصر باب الخروج!

ها هي ذي ألسنة اللهب تقترب نحوي.. ويلي لماذا أنا بالضبط؟ أهذه امرأة ترجلت فاحترفت نزوة التغيير؟ أم أنني مقصود بمكيدة أوقدتها الشياطين بين النقابة والسياسة؟.. وضاعت مني كل الأجوبة، فلم يعد ذهني قادرا على التأمل والتركيز!.. هذه ألسنة اللهب العليا تتدلى نحوك عناقيد ندية لم تجف بعد من ثمالة آخر الليل.. والكلب

مازال منبطحا فوق الأريكة! نظرتُ إليه بحرف عيني؛ فضحكتْ مني ثم قالت في استهتار زاحف:

- لا تهتم، فهو كلبي!

وشعرت بالغثيان!.. كيف يكون لها كلبها وتكون هي لكل الكلاب؟ لا.. لا! يجب أن ينصرف! يجب أن يغرب عن وجهي!

وأشرت إليها بحزم بدوي أن قفي! أعرف أني بباب خراب! لكنني أبدا لن أسمح بتدمير معنى الرجولة في قلبي!.. نظرت إليها ثانية، ثم أشرت عليها به! ونظري القاسي لا يبرح لهجته الشديدة!.. فاستدارت إليه، ونادته وهي تشير برأسها آمرة إياه بالخروج!

وخرج الكلب يا سادتي!.. خرج يمشي على أربع ويجر ذيلا ذليلاخلفه، وهو يغني بكلمات فرنسية قديمة!

On ne vit pas sans se dire adieu!.. On ne vit pas...

كانت الصحراء خالية من كل الظلال، كل الأشباح هربت لتختبئ في أدغال الصخر البعيد.. اعتليت ربوة عالية بين البطاح، جرداء إلا من بعض الأعشاب الشوكية، وصرخت من الأعماق، ناديت الكلاب الوحشية، ناديت الذئاب وأبناء آوى، استنجدت بالضباع والأفاعي، استصرخت الطيور الكاسرة: النسور والعقبان والغربان.. وطلبت حضور كل الأوابد.. يا سادتي الوحوش هلموا إلي! هلموا أريد أن أخاطبكم..

حتى إذا خرجوا من كل فج عميق، واجتمعوا إلي في الصعيد الممتد أمامي، ومدوا أعناقهم ينظرون إلي في فضول؛ ألقيت خطبتي:

ـ اسمحوا لي يا سادتي الأتقياء!.. يا عباد الله الصالحين! يا أمراء الزئير، والنعيق، والعواء، والنباح، والفحيح!.. أقسم عليكم بالله أن تَصْدُقوني! هل منكم من يرضى الخروج عن وحشيته، فيتدجن؟.. من منكم يحب أن يهجر جحره الوعر، أو مغارته المحصنة بين شماريخ الجبال، فيسكن مع بني آدم في ترف الزرائب والاصطبلات؟.. لكن بشرط واحد، هو ألا يفح ولا يزأر ولا يعوي أو ينبح!.. أجيبوني يا سادتي أعز الله وحشيتكم!

وانتظرت الجواب طويلا، انتظرت حتى فترت أصداء كلماتي، واندثرت في القيعان البعيدة.. وكاد يقتلني اليأس.. فشرعت أسلي نفسي بالمنطق المعقول: إنما هذه عجماوات لا تنطق ولا تجيب، ولا تخاطب إلا من كان على شاكلتها!.. فهل أصبت في عقلك؟ كيف تخاطب ما ليس محلا للخطاب؟!.. وانتفضت في مكاني، أبيت أغلال العقل، ومتى كان العقل يقود لغير الإفلاس؟ وأعدت ندائي بإصرار.. رجوتهم، حتى غصت العبرات في حلقي..

وفجأة رأيتهم ينكسون رؤسهم يا سادتي الكرام!.. نعم! نكسوا رؤسهم فيما يشبه الحزن والأسى! ثم انشقت الصفوف عن ابني آوى هزيلين، يخطوان نحوي في ترهل المسنين.. وسرعان ما تبينت ملامحهما فعرفتهما، ولكم كان فرحي عظيما! إنهما كليلة ودمنة!.. أحكم متكلمين في تاريخ الحيوان!

رفع كليلة رأسه ثم قال:

ـ زعموا أن قوما من بني آدم سكنوا مدينة حجرية في الزمن

القديم، فتواطؤوا على الفاحشة سرا فيما بينهم؛ ظنا منهم أن أخبارهم لن تخرج من بينهم، ولكنهم نسوا أن كل بذرة إنما تكتم سرها ما لم تغرس في التراب، فإذا غرست أنبتت ثم فتحت زهرتها، فإذا هي ريح ينتشر في كل مكان! إن شرا فشر، وإن خيرا فخير!

قال دمنة: وكيف ذلك يا كليلة؟

قال: ذلك أن الفاحشة حينما استؤنست فيما بينم سرا، فجرت بها فاجرة، فخرجت على الملإ بحملها الأثم، فاقتادها أهلها إلى البطحاء، لرجمها حتى الموت - زعموا - وكان بينهم رجل على بقية خير فيهم، سمع بالأمر فلحقهم وقد تحلقوا حولها، فصرخ فيهم قائلا:

- يا أبناء الخنازير!.. ألقوا ما بأيديكم من حجر!.. والله لا يرجمها اليوم إلا رجل لم يقترف فاحشة قط!

فتقهقروا عنها مدبرين، مهزومين!.. وسكت الرجل برهة ثم قال:

- ويلكم! كيف تطلبون منها العفاف وها أنتم إنما مثلكم مثل المزبلة التي تطلب الأريج الطيب من أزهارها؟ ألم تسمعوا بمثل بائع الطيب ونافخ الكير؟

قال دمنة:

- وكيف ذلك يا كليلة؟

وسقط في يدي!.. ثم نظرت إليها فالتقت عينانا من جديد، ونكست رأسي كالمهزوم إذ يقف أمام قائده الأعلى!.. كانت أطيافها في الصالون تهاجمني من كل مكان! أحسست بالانهيار الرهيب يدب إلى قلبي، ثم نظرت إليها مستعطفا؛ فتبسم الانتصار في عينيها

الشامتتين، وتدفقت تحري كالسيل المحموم! فتراجعتُ خطوة إلى الوراء، ثم قلت لها:

ـ أخبريني بصراحة من أنت؟.. ماذا تريدين مني؟

لفحتني بموجة من ريح الجناح ثم قالت:

ـ أنت محظوظ!.. الدوائر العليا قررت مكافأتك على نجاحك النقابي.. فلك أن تختار بين كرسي السلطة، أو كرسي الحزب، وليس لك إلا أن تختار!

ـ وأنت؟.. ـ وأشرت إلى لهيبها المحموم ـ لماذا كل هذا؟ ألا يمكن أن نتفاهم خارج هذا الجحيم؟ ثم ما وجه دخوله في السياسة؟.. وحاولت أن أفسر لها أني لست من ذلك الطراز.. فأجابت ساخرة:

ـ ولو.. لنعتبرها فاكهة على هامش المائدة! هذا فقط إكراما لرأيك، وإلا فليكن في علمك أن كل القرارت السياسية تخرج من هنا!.. وأشارت إلى باب الجحيم!

ونفخت ملء شدقيَّ، فقلت:

ـ عجبا!

فردت وهي تفتح عينيها إمعانا في اصطناع البراءة:

ـ عجبا؟.. وما وجه العجب؟

نظرت إليها في احتقار، ثم أشرت إلى الخلف قائلا:

ـ وهو؟

ضحكت مرة أخرى، ثم قالت بلغة فرنسية موغلة النطق في

عجمتها:

ـ لقد رأيت بعينك!.. ولولا إصرارك أنت لما قام من هنا! وإنما أمرته بالانصراف إكراما لك! يظهر أنك لا تعيش عصرك! شعور قرأت عنه في وصف الشعوب البائدة، وما كنت أصدق أنه لم يزل منه شيء على قيد الحياة حتى رأيتك!.. ثم لا تنس! زوجي أستاذ للفرنسية رفيع المستوى كما ذكرت لك ـ والفرنسية يا صديقي العزيز طريقة حياة! قبل أن تكون لغة ـ وهو أيضا كاتب ليس بالمغمور، ربما يسوق له الحظ غدا جائزة الجونكور! إذن فهو يُنظِّر للقيم ويصنعها، وليس في حاجة إلى أن تعلمه بعض دروسها البالية!..

قالتها وهي تضحك مظهرة للمزاح؛ تخفيفا من وطأة السباب! ثم أردفت عادلة عن فرنسيتها الساخرة:

ـ دعنا من هذا.. ولندخل إلى مملكتنا الساحرة.. ألست أديبا؟

وتهت في ذاكرتي المتصحرة أبحث عن آخر أسلحتي، لعلي أجد لي جنة أقوى مما تكسر بين يدي.. لست الآن بحاجة إلى كلمات، فقد أيقنت أن الكلام مع مثلها لا يجدي!.. وإنما سلاحي المطلوب الساعة هو درع يحميني من هذا الظلم العظيم، ويقنعني بالقتال!.. تذكرت عقوبة البستان، وتذكرت كلام ابن آوى، ومعاركي الأولى والأخيرة، ورأيت صديقي عليا يقتحم العقبة بين النادي والشلال، ثم لا يصل أبدا.. ورأيتني أستهتر بكل الشعائر والقيم، ثم سألت النبض الهارب بقلبي: لم أنت إذن خائف من خوض هذه البركة الآسنة؟ فيم التردد والازورار؟.. وكدت أستسلم لمنطق الخواطر كما وردت علي بغير تكلف، إلا أني

سرعان ما عاودني تعنتي الغريب، فذكّرت نفسي في ـ آخر لحظة ـ بأني رجل! أغضب لشيء، واحد هو رجولتي. فوجدتها!.. وصرخت فرحا: إي.. نعم! لا يمكن أبدا أن أسمح باغتصاب رجولتي!.. أنا؟.. السيد المحجوب أسقط ضحية هذه اللغة الخنثى! لا، لا أبدا.. سأقاتل.. سأقاتل حتى آخر نفس!

تراجعت إلى الوراء قليلا، فاستجمعت قوتي ثم قفزت فوقها مثل النمر! فإذا بي فوق المائدة الكبرى ومنها إلى النافذة العالية.. نظرت إليها فوجدتها قد فغرت فاها واضعة كفها عليه في ذهول، والخوف يعتقل بصرها تجاهي!.. عقدت لكمتي البدوية فوكزت الزجاج بقوة! فتكسر صوتها على الأرض صارخة: لا!

أخرجت رأسي من النافذة فاستنشقت الهواء البارد، الذي يهب مع ريح السحر.. أحسست بالانتعاش، ودب في قلبي الأمل.. ثم نظرت إلى أسفل، فرأيت أضواء العاصمة غارقة في قاع الدنيا، تلمع ساكنة في شرود.. كل شيء نائم في راحته كما أرادها، كل إنسان، حتى السجناء، قد استسلموا الساعة لأحلام الإفراج!.. إلا أنت يا محجوب! أبت الشياطين إلا حرمانك من النوم هذه الليلة، وربما إلى الأبد!.. كلا لن أستسلم.. سوف أوقظ الجميع! لن ينام أحد ابتداء من الآن، سأفزعهم، سأفضحهم.. واستنشقت الهواء ملء رئتيّ، ومددت عنقي مثل الديك، ثم صرخت من الأعماق:

ـ النجدة!.. النجدة!

وقبل أن أسمع أصداء صياحي شعرت بضربة ضاحكة تنزل بين

كتفي، يتبعها صوت أخي المهدي وهو يداعبني:

ـ نجوت يا محجوب!

فأجبت على التو مستغربا:

ـ ومِمَّ؟

نخس الحمار بشوكته إذ لاحظ أنه بدأ يتباطأ في السير، ثم قال:

ـ قبل مجيئك بيومين فقط، كانت القرية مسرحا لأحداث رهيبة، لو كنت هنا؛ لكان السجن مصيرك حتما مثل كل المتعلمين!.. أتدري؟ كتبوا شعارات على الجدران ضد السلطة!

لم أهتم بما يقول فلم أجب، فهو يعرف تهوري القديم، ويذكر أجوبتي عندما يخبرني بمثل هذه الأشياء: (يؤسفني أنني لم أكن معهم!).. ربما أراد الآن أن يختبرني، أو يداعبني.. لكني غير مستعد لشيء من ذلك، فعقلي مشغول بها، ولاشك هو ينتظر سؤالي عنها اليوم أو غدا، لكن أنا الآن متعب جدا، لا أستطيع التمادي ولا قليلا، فبادرته بالسؤال كأني لم أسمع قوله ذاك:

ـ أخبرني.. كيف حالها؟

قلتها.. ونكست وجهي حياء، فرغم أنه الوحيد بين إخوتي الذي أحس بتعاطفه الكبير معي، ورغم أنه أقربهم مني سنا، فإني أكن له في قلبي شيئا أشبه ما يكون بعاطفة الأطيار والأشجار!.. علاقة نشأت بيننا صافية مثل ريح الصبا إذ تهب على سهوب الأعشاب البرية.. طال سكوته عني، فرفعت رأسي أنظر إليه.. كان هو أيضا مطأطأ الرأس لكن في أسى خفيف. كان وجهه المائل إلى سمرة تعتقت بفعل الشمس

الصحراوية؛ قد شرب شحوبا من صهد الهاجرة.. فشعرت بالفزع يا أحبتي! لا شك أن أمرا ما قد حدث، وتدفقت دقات قلبي إلى أذني، فانحرف صوتي للبكاء، وأنا أسأله من جديد:

- مالك ساكت هكذا؟.. أخبرني!

ورفع رأسه بصورة رهيبة لن أنساها أبدا.. ثم أطلق البارودة:

- لقد رحلوا..!

لم أصدق ما سمعت فاستنجدت بالسؤال من جزع:

- ماذا تقول؟

- استغنت القبيلة عن إمامة والدها بعدما شاخ، ولم يعد يُسمع بالقراءة جيدا، وشارطوا شابا من القرية المجاورة، أتم حفظ القرآن والمتون.

وأحسست بالموت تقتحمني حوافره بعنف. لا أذكر أني شعرت برغبة حارة في البكاء مثل تلك اللحظة. قلت جاهدا قبل أن ينزعني الاختناق:

- وهي؟

أجاب بصوت كأنه طارق من الجن، أو أنه هاتف من الآخرة:

- طبعا معهم!

كنت أود لو تحصل معجزة ما، أو خطأ ما، أو أي خرق لناموس الأشياء، فيخلفونها وراءهم، يتركونها هنا في مكانها الذي ولدت فيه وتربت، فكانت أميرة على مملكة الأشجار..!

ـ وأين حطوا؟

ـ لست أدري! ولا أحد من أهل القرية يدري.. قالوا: رحلوا بحثا عن الرزق.. قيل: في جنوب الجنوب! وقيل: بل هنالك في الغرب!.. وذكر الناس عجبا، قالوا: سكنوا في صفيحة!

واستدرت إلى الحمار بقوة المسكون، وأخذت بأذنيه الطويلتين ثم صرخت به:

ـ أي قبيلة بلهاء، هاته التي نصبتك شيخا عليها يا حمار؟.. كيف تقر صرف الفقيه عن الإمامة، وقد أمضى كل عمره ههنا سيدا ومعلما؟.. أي ظلم هذا الذي تمارسون وأي دمار؟ أهكذا في آخر عمره وهرمه تُمضون إلقاءه إلى الضياع في المجهول، كما يمضي السكران ورقة الطلاق؟!.. وهي؟.. هي ياحمار! ماذا جنت حتى تجلوها إجلاء اليهود عن قريتها ومسقط رأسها؟.. ويلكم! أي صلاة ـ بعد ذلك ـ بقيت لكم في الحسنات، وأي دين؟

يا ضباع هلمي إلي ثانية.. ويا سباع أقبلي! ها أنا ذا أدخل مقام التيه والشرود؛ كي أنفض أوراقي اليابسة، وأخرج كما خرج بِشْرٌ الحافي في ليلته حافيا.. فهل لي يا أحبة بينكم من رفيق؟

وألقت عصاي أمامي خطوتها، وانطلقت مثل الريح فوق السهوب، أبحث عن الغرب من جهة الجنوب!.. أباكي الأطيار كل غداة، وأنشج في الآصال مع الجبال.. حتى إذا جن الليل كان شبحي يركض مثل الساحر في أضواء القمر؛ لعلي أعثر على خيط نور يوصلني إليها!.. أليست الأقمار سوى نثرة من خطوها؟.. إذن من هنا مروا! لا شك!.. فجدي

المسير يا جوانح السرى!.. إن كل خطو يضرب نحو منازل الأحبة خطبه قريب!

وانتبهت ـ بعد بضع مقامات ـ على ربوة تشرب من شمس الهاجرة. سرحت بصري في المدى. ثم قلت:

أوَ ليست هذه هي العلامات الأولى؟.. بلى، والذي نفسي بيده!

فهنا شريط النخيل المحاصر بكثبان الرمال!.. وهذه بطحاء الحناء!.. ها هي ذي حقولها الخضراء تملأ المكان، تمتد ساهمة في سكون الهجير.. كانت أرواحها تملأ الريح بعبق غريب، يسكر الروح بوجد لا يطاق!

آهٍ سادتي! من لي بأوراقها الصغيرة الحانية الآن؛ لمَّةٌ طريةٌ أضمد بها أحزاني؟!.. ها هي ذي خضرتها الصارخة بين الرمال، في هذا القفر الموحش، تتفتح زهيرات لامعة تحت الشمس في صفرة خفية، تنظر من خلف بياض، كل زهرة منها تبشر بميلاد عرس جديد! من حين لآخر تغمرك أنسامها بأريج الطفولة، فإذا بك مجذوب إليها كالطير، مسلوب الإرادة!

حقول الحناء يا ولدي، أريج يخطفك من بعيد، فإذا بك مجنون تخطو حافي القدمين فوق الرمل اللاهب والأعشاب الشوكية! تسعى كقصيدة شعر لافحة الشوق إلى جداثلها! هنالك يا صاح، تفيض أنفاس المحبوب!

قال لي راعٍ من رعاة الأحزان الخلوية:

ـ أشواك الحناء أدمت قدميك يا ولدي!.. فارفق بنفسك، وامش

على وسائد التراب هونا!

قلت:

ـ أوَ قد دَمِيَتا؟.. فارقص يا قلبي فرحا بدم صدَقَ الأحبةُ فصدَقوه!

ثم انتثر مهرا معروضا على الأعشاب ينزف نحو مساكنهم!

وغربت الشمس يا سادتي مثلما أشرقت زمانا لست أقدره.. وأنا سائح بين وبر ومدر، أفترش الرمال والأشواك، وأبيح منخري لسف الريح المستريح!.. طعامي شواء الضباب أو الجراد، وشرابي شاي الشيح أو نبيذ التمر الخلط.. وقفت على خيمة رُحَّلٍ ذات يوم، فسألت عن غرب الجنوب، ثم أشاروا تجاه المحال وأطرقوا آسفين!

قال لي شيخ مسن وهو يربت على ناقته:

ـ أجنوبا تريد أم غربا يا ولدي.. دقق فإنهما لا يجتمعان!

ـ جنوبها يا سيدي يؤدي إلى الغرب.. فدلني!

قال وقد تملكه العجب والاهتمام:

ـ الحياة حياة.. فكيف تؤدي إلى الموت؟

ـ ومن يدري.. لعلها تحييه من جديدا.. الغرب خراب مباح، والجنوب رياح لقاح.. فلو أصابا وقتهما أخصبت الحياة!

هز رأسه موافقا، أو ساخرا لست أدري.. وأشار إلى جهة انحدار البطحاء، وتدفقت مع الحصى في هاجرة الرحيل إلى دار الحبيب.. وبعد طي منازل الشوق أشرفت على آخر مقام.. كانت جميع الأوصاف كما ذكروا. وارتجفت للقاء أول العابرين!.. سألني متعجبا:

ـ من هذا الغريب الذي يطرق قرية مزق أهلها العطش الشديد؟ كيف تدخلها وأهلها منها يهربون!؟

وسألته قبل أن أجيب:

ـ أي القرى من بلاد الجنوب هذه يا سيدي؟

ـ ألا تدري أين أنت؟ هلكت إذن! هذه جنوب الجنوب!.. أنت في آخر الدنيا!.. هنا تتبخر الدمعة في المآق، ويشتعل الكبريت في الأحداق!

ـ لكن قل لي يا سيدي إلى أين يرحل هؤلاء؟

ـ إلى الغرب.. حيث الماء والخضرة.. لكنك لم تخبرني من أنت أيها الغريب؟

ونكست رأسي.. ثم قلت بهدوء:

ـ أنا الغرب!

وانزعج من كلامي.. فصاح مستنكرا:

ـ وما تفعل في بلاد الموت؟

ـ أبحث عن الحياة!..

وسألته بدوري:

ـ أعندكم فلانة بنت فلان؟

قال:

ـ نعم لكنهم بالأمس فقط رحلوا!

ـ إلى أين؟

ـ إلى الغرب!

ونزعت رقاعي من على كتفي، معرضا ظهري النحيل لحر الشمس، وجثوت بركبتيّ على الرمل ثم مددت يدي نحو السراب اللافح. وأنشدت في الريح اللاهب قصيدة الاستشفاء:

ـ ها أنا ذا غرب قادم إليك سيدتي.. متوسلا إليك أن تبقي لي على جنونك الميمون!.. ها أنا ذا بركة آسنة تجمعت أمواهها من صبيب المجاري النجسة، والأوحال القذرة، الآتية من كل خمارة وناد، آتية بكل فكرة وقرار.. فكنت هذا الذي تشهدين.. بركة علاها الطحلب الوسخ والخضرة الكاذبة، خضرة وارفة الخمائل، حتى صارت غابة تضرب بأغصانها في الفضاء.. لكنها غابة عفنة وأدغال خانقة!.. نار هذه الصحراء أولى بها.. فتبخري يا عروق وتفجري! هذه الرمال كفيلة بإتلاف كل الخطايا القديمة والجديدة!.. هذا ظهري عاريا.. فيا سياط الشمس ألهبي مني كل ضلع أو جناح، انحنى ذليلا بين يدي ظل من ظلال العمى!..

نحري تتدفق أوردته بالندم المحموم، فأريقوا دمي بسيف محبتكم!.. وعلموني!.. علموني كيف تذوب الأنفاس في هواكم! هذه روحي ـ الوجيب الوحيد الذي أحتفظ به طاهرا ـ أنثرها بلورات مسك في موطئ أقدامكم.. فهل يرضيكم؟

كانت أسراب الطير تضرب تحت السحاب بأجنحتها في الفضاء آتية، تبدو من بعيد وهي تقترب كالأمل.. لحظة، وتحركت الرياح راقصة في رعشة باردة.. وكان حال المحال! نعم سادتي.. كان أن تدفق الشلال

فوق الرمال!.. سمعت صوته بأذني هاتين! سمعته آتيا من جوف الصحراء مقررا في هدوء ودود:

ـ قد قبلناك يا محجوب فادخل!

***

-5-

كان الليل قد لون الفضاء بأشعة النور الهادئة.. كل شيء في المدينة الآن يؤوب إلى السكون، اقتربت بخطى شاردة حائرة.. الباب صغير وجميل، قد ظللته من الجانبين شجرتا موز وارفتان، تكاد أوراقهما تغطي اللافتة الكبيرة المعلقة فوق العتبة العليا: (جمعية البر والإحسان) رسم إلى جانب الكلمات رمز صغير. دخلت مترددا.. ضحكت من خياشيمي ساخرا من نفسي، لكن سرعان ما استدركت فاستنجدت باللوامة: كن رجلا.. ارم خطاك وادخل! ربما اليوم تكشف آخر حجبك يا محجوب، ومن يدري؟..

كانت الحديقة الفسيحة تحيط الفيلا الناعسة تحت الأنوار الحانية. الناس متناثرون هنا وهناك على مقاعد بلاستيكية، يتسامرون تحت شجيرات الليلك والبرتقال.. رفعت بصري أبحث عن مصدر النداء.. رأيت صديقي عليا يلوح لي بيده، فاستبشرت، وانتشر في دمائي وجيب الاطمئنان.. لما وقفت عليه قام إلي وعانقني طويلا.. فقد مرت سنوات على افتراقنا.. صافحني بحرارة عدة مرات، ثم قال لي:

- كنت أعرف أنك سوف تعود.. بل كان عندي يقين! أنت معدن طيب وأصيل.

شكرته على عواطفه النبيلة وصفاء محبته، كنت خجلا.. فهذه مواطن لم أعرفها من قبل. ثم سألته:

- متى يبدأ الحفل؟

- بعد منتصف الليل

- عجيب! ولماذا؟

- هنا مثل الزاوية، لا تصفو الأذكار إلا في الأسحار.. لكننا هنا نرتاح أكثر، أفراح وأرواح. وأشار بيده إلى بركة ماء راكدة وسط الحديقة الفسيحة ثم قال:

- هذا مسبحنا، إذا دخلنا مقام الفناء؛ غطسنا فيه نبترد قليلا، لعلنا نسترد مقام الصحو!

لم أفهم شيئا.. لكنني أحببت أن أملأ الوقت في انتظار البداية بنبش ذكريات الماضي، فسألته:

- والنادي؟ نادي الموظفين، أمازلت منخرطا فيه؟

- لا، لا غادرته بعدك بمدة.. لقد مللت، وأنت تعرف لا رفقة لي فيه، كنت أنت صديقي الوحيد. فلم أطق الوحدة بين قوم مثل الوحوش.. طقوسي الآن فلك يدور بي بين هذه الجمعية والزاوية.

ومضينا في حديث ذائب مثل الرثاء... وتكلمنا كثيرا، سألته وسألني، عزيته وواساني.. كنا معا نشعر أننا ركضنا كثيرا، وخضنا كثيرا، وتعذبنا كثيرا!

نظر إلي كالباكي ثم قال:

- استعجل الشيب شبابك

أطرقت قليلا ثم رفعت رأسي مبتسما في أسى، وقلت:

ـ تلك بداية النهاية!

ابتسمت عيناه في هدوء ساخر، فقال وهو ينظر إلي من تحت حاجبيه:

ـ صدقت! كلنا ذلك الرجل.. لا أكتمك: هذا إحساسي أنا أيضا!

وأخذ بيدي، فاستأنف وهو يتهيأ للقيام:

ـ هيا.. لنقم هذا أوان الراح!.. مقامات الأفراح كفيلة باطّراح الأتراح!

كانت القاعة مضاءة بمصابيح صغيرة كالشموع، تنبض بألوان شتى.. اصطف الناس جالسين على المقاعد، والأبصار كلها معلقة بأستار منصة صغيرة تنتصب إلى أمام.. تدفقت الموسيقى هامسة بضع دقائق، وانفتح الستار عن رجل وامرأة.. وقبل أن أتبين ملامحهما قال لي على هامسا:

ـ تلك هي رئيسة الجمعية، وذاك كاتبها العام.

لكن مفاجأتي كانت خيبة كانهيار الأسوار!.. أيقنت أني ضللت الطريق مرة أخرى!

يا سادتي دلوني على أسماء الأشياء.. ذكروني بمدلولاتها! أين الجهات الجغرافية؟ وكيف الفصول تتميز عن بعضها!؟ ذكروني أرجوكم فقد فقدت ذاكرتي!.. أتكون هي.. هي.. سيدة الثقافة كما هي.. وصاحبها سيء الذكر: اليهودي أكرمكم الله!؟.. لا، لا، مستحيل!..

رئيسة لجمعية البر والإحسان؟.. وهو كاتبها العام؟.. أي خبل هذا الذي أصاب دوران الحياة في الأفلاك، فانقلبت إلى عكس الاتجاه؟ وأي جنون هذا الذي أخرج الكواكب السيارة من هدوء، إلى فوضى؟.. بل اليوم تدخل كثافة الحجب من جديد يا محجوب! آه!.. أما آن لك أن تتخلص من كرابيس اليقظة يا قلبي؟ هذه مجاري النجاسة أهرب منها، فتتبعني أينما حللت وارتحلت، وتحاصرني في كل مكان.. الويل لك يا مجنون! تضرب في هذه الأرض ساريا وساريا، العمر كله؛ ولا من مكان نظيف؟!.. وأحسست برغبة في الضحك حتى السعار!.. كان الشيطان ينهق في جوفي مثل الحمار، ولقد كدت يا سادتي أن أفتح شدقي وأفعلها.. لولا أني قدرت أمرا آخر!

ابتدأت الكاهنة خطابها فرحبت وشكرت.. ثم تكلم البغيض فأطال في غير طائل.. وأمعن في تفصيل الإحصاءات المتعلقة بأعمال الخير التي أنجزتها الجمعية، من توزيع الألبسة والأطعمة، والدفاتر والكتب المدرسية؛ على المحتاجين، والمحرومين، وسكان أحياء الصفيح.. وكذا السهرات الغنائية والأنشطة الرياضية، المنظمة لفائدة ذوي العاهات والمعوقين.. وما فرج الله عنا حتى أذنت سيدة الإحسان بالانتقال إلى قاعة السهرة!

***

ها هي ذي تطوف على الناس توزع شارة الجمعية: شعار مذهب، بالتأكيد يدل على شيء ما.. لكني لست أدري. توشح به كل من لم يحمله بعد.. كان يسير إلى جانبها متأخرا عنها قليلا، يحمل طبقا نثرت فيه الشارات مثل النجوم.

اقتربا مني، فضغط علي على يدي مسرورا، قال لي مبشرا:

ـ ستحمل رمز الجمعية على صدرك.. الآن ستدخل مقام الإحسان!..

وصرخ بصوت أشبه ما يكون بنبحة كلب هرم:

ـ هو!

وقفتْ أمامي بكل جسمها فاضطربتُ قليلا، ثم استعادت على التو رباطة جأشها.. يا لها من أفعى قديرة! ما زالت ـ كما كانت ـ متمكنة من قدرتها على التمثيل!.. التقت عيوننا فابسمت في هدوء.. قالت:

ـ مرحبا بك.. يسعدني أن نلتقي مرة أخرى، لكن في هذا الفضاء الجميل خاصة.

شكرتها متلعثما.. كنت أشعر بشيء من الذنب القديم، لكنني تمالكت نفسي.. وبينما انهمكت هي في تعليق الشعار على صدري، اغتنمت الفرصة؛ فنظرت إليه وهو واقف من خلفها كالشبح فردا. كان يصطنع بسمته اصطناعا، بصورة ساخرة تبعث على الغثيان.. حياني برأسه دون أن ينبس بكلمة. ربما كان يتظاهر بعدم معرفتي.. أو ربما هو قد نسيني فعلا.. لست أدري! فالمدة على كل حال ليست باليسيرة، والزمن يجري في خفاء السهو، أو في هجوع الشرود.

كانت عيناه تبسمان ـ كعادته ـ في سخرية لا تنتهي.. إنه يهودي فعلا! ها هو ذا مثل نخاس يسوق أمامه أمة أخرى.. ولطالما باع واشترى في أسواق الثقافة والسياسة إماء وعبيدا كثيرين! هذه أمة قديمة يدفعها

اليوم في خبث لتؤدي دورا آخر، بعدما كسدت تجارتها في عالم الإبداع. كان اسمها قد تلاشى منذ زمان، حتى كادت تصير نسيا منسيا!

***

الرقص هادئ كهدوء الموسيقى.. الأشباح تتعبد مثنى مثنى، تحت قبة المعبد؛ بمباركة السيدة القديسة، وصاحبها الحاخام!.. بعيدا عن محرقة البخور جلست إلى علي شاردا أنظر في ذهول. قال لي:

- أي موسيقى هذه.. ألا تذكر؟

أجبت وأنا لا أحول عيني عن مرمى شرودي:

- إنها موسيقى البر والإحسان!

وكأنما أدرك مرارة السخرية في قولي فسكت قليلا ثم قال:

- ولماذا جئت إلى هنا؟

- جئت كما جئت أنت. اختنقت بدخان النوادي الليلية؛ فجئت أرجو نفساً عليلا.. وها أنت ترى! هذا هامش الصلاح في مجتمع الكلاب!

غمزني برجله من تحت الطاولة فالتفت؛ فإذا هي واقفة ورائي تنظر باسمة. قالت وقد خالط بسمتها نوع من الاستغراب:

- ما بالكما تنزويان بعيدا عن متعة الحفل؟

أجبتها بسرعة حتى أعفي صاحبي من كلفة الرد:

- أشعر بعياء ما.. وعلي إلى جانبي يؤنسني. إنه صديق قديم.

تحولت إلى جهته فجعلت تربت على كتفه وهي تقول له:

- قم.. يمكنك أن تستريح قليلا هناك، بينهم بالتأكيد ستجد بعضهن يتداولن على راقص واحد. الليلة عندنا فائض.

ضحكت. ثم استأنفت وهي تنظر إلي:

- دوره سأقوم به أنا. أم لست أهلا للإيناس يا أستاذ؟

قلت:

- بل مرحبا وأهلا.

وغاص علي في ضباب البخور.. نظرت إليها فوجدتها تتأملني في شرود. كنت أنا المحتاج إلى مساءلتها. ولذلك قررت قيادة الحوار. لن أتيح لها أبدا أن تضيع فرصتي بأحلامها الواهمة. فبادرتها بالسؤال:

- منذ متى أنشأتم هذه الجمعية؟

ورأيت الفرحة تنشر الانشراح على وجهها.. ربما لظنها أن هذا هو الطريق المعبد إلى قلبي المحصن ببدويته، أو ربما لمجرد بداية الحوار. قالت:

- منذ سنة واحدة فقط.. ومع ذلك فقد كانت الإنجازات كما سمعت!

وحولت السؤال إلى الأهم عندي:

- وأين تركت مملكة الثقافة!.. منذ زمان ليس بالقليل غاب

نشاطك الأدبي. حتى الإعلام سكت عنك. ماذا حصل لشاعريتك؟

وهنا تحول انشراحها إلى خيبة. كانت الظلال السوداء تلطخ وجهها بالشحوب. قالت وقد غارت عيناها محتضنتين حزنا بعيدا:

ـ إيه! الثقافة.. أما الثقافة النسوية فتلك ـ كما أنت تعلم جيدا ـ صناعة جسدية. قيمتها عند هؤلاء، تقوم بما تملك المرأة من جمال، أو من سخاء!كنت ترى بعينك أني كنت أمارسها بهذا الجسد المتهالك أمامك الآن.. ولكن يوم كان!

وكأن الموت يا سادتي.. كان يطل بهوله الغامض من عينيها.. سكتت برهة، ثم أردفت:

ـ واليوم ها أنت ترى.. ـ وأشارت إلى صدرها ـ هذا الجسد الغاوي يذوي الآن كما تذوي الفراشة فوق الأعشاب الميتة! إنهم يقولون عني يا محجوب: لقد تجووزت!.. عبارة نقدية كتبوها عن شعري، وأنا أعلم أنهم يقصدون جسدي!

قلت وأنا أحاول التخفيف عنها من حدة الألم:

ـ لا، لا.. كيف تزولين هكذا؟ ثم ربما يكون هناك من يقدر شعرك أكثر. والنقد كما تعلمين حظ الذوق منه كبير. ثم لا ينبغي لك أن تسقطي في مجاهيل التأويل، فهو وسواس ليس إلا.

وحدجتني بنظرة قوية فقالت:

ـ أنت تعلم جيدا أني صادقة فيما أقول.. ثم أنا لست في حاجة إلى علاج نفسي يا أستاذ! أرجوك دع عنك الآن كل عبارات التدليس.

لست وإياك في حرب، وإنما في حوار!

وأحسست بالارتباك فعلا. فإنه لا أصعب علي من أن أكذب ثم أدافع عن كذبي!.. وتراجعت إلى وراء، وكان صمت أشبه ما يكون بالعزاء.

عدلت جلستها منحنية إلى أمام، ثم قالت بصوت هادئ حان:

ـ ما معنى (محبووزت)؟.. ـ وضحكت بسخرية خفيفة ـ أنا لم أكن شاعرة في يوم من الأيام!.. أنت تعلم. ثم الأهم من هذا كله ـ وزفرت زفرة ما إخالها إلا خارجة من بخار كبدها الداخلة في ذاكرة النار! ـ الأهم يا أستاذ أن عرشي الذي كان؛ تتربع عليه اليوم فتاة ـ قالوا تكتب شيئا لا أذكره ـ لم تتجاوز بعد ربيعها الخامس والعشرين! حديثة التخرج من الجامعة.. هي الآن أكثر إثارة مني طبعا.

وملأ الحنق رئتي فصرفته نفخا وأنا أقول:

ـ والمصير.. ألم تفكري في حل أو طريقة ما للمواجهة؟

هزت رأسها في يأس رهيب وقالت:

ـ المواجهة!.. مع من؟ أو ضد من؟ ألا تفكر يا محجوب!.. التجاعيد التي اقتحمت خدي هذا؛ أيمكنها أن تهزم نضارة الورد الذي يبيع رائحته لكل شمام!.. ذلك زمان ولى يا سيدي. إنهم يقولون لي «من أكل حقه أغمض عينيه!» أما هم فحقهم لا ينتهي أبدا؛ ولذلك فهم يأكلون أبدا!

ثم طأطأت رأسها كالخجلة، وأردفت:

ـ فالمصير إذن هو المزبلة كما ترى!

قلت محتاطا لكلماتي:

ـ بل أنت رجوت البر والإحسان!

ـ نعم، ولكن الذي ترى إنما هو مجمع للفاشلين، الفاشلين في ميادين شتى! إني أعرفهم واحدا واحدا.. كلهم خسروا في مباريات الفجور؛ فانحازوا إلى هنا صاغرين. هذه دار العجزة، هذه مزبلة المجتمع. العاملون هنا إنما هم العجزة المتساقطون في حلبة الصراع الاجتماعي!.. القوي الوحيد هنا هو ذاك اليهودي. إنه المستفيد الأول والأخير من كل هذه الحركة. الأموال والاختيارات كلها بيده! لا شيء يتجه في غير مصلحته. ما يسمح بإنفاقه من المال الذي تجمعه من المغفلين، والوصوليين، وذوي المصالح الخسيسة؛ لا يبلغ المعشار من الرصيد الحقيقي. إنه يلتهم المال وكأنما يهلكه في اللهيب، أو كأنما يصرفه لجهات أخرى!

ـ مثلا.. ؟

ـ ربما لإسرائيل!

ـ متأكدة؟

لست أدري.. أحواله، علاقاته الخفية، بعض مراسلاته التي اطلعت عليها بالصدفة.. أشياء أخرى من هذا القبيل تشير إلى ذلك بوضوح. خيوطه أبعد من أن ترى ولو لأقرب أصدقائه. إنه رجل غامض غريب الأطوار.

ـ ولم لا تحاسبينه؟

ـ أنا!.. لا، لا أستطيع. مازلت أذكر كلمتك فيه، لكني مضطرة إليه! هو الدرع الوحيد الذي بقي لي!

ـ لم لا تفكرين بطريقة أخرى!.. مثلا ألا يمكن كشف أمره للحكومة، فتكوني أنت الرئيسة فعلا لا شكلا فقط، وتكون الجمعية للبر والإحسان حقا وصدقا؟

ضحكت بمرارة فقالت:

ـ الحكومة؟ هذا أهم عندها عشرات المرات مني وأفيد، فهو على الأقل يزاحم الجمعيات الإسلامية في أهم مواقعها الاجتماعية: البر والإحسان!.. ثم أي حكومة هذه التي تستطيع الإطاحة به، وهو يستند إلى طابور من الأشباح الرهيبة!

ـ ماذا تعنين؟

ـ لست أدري!.. مخابرات أجنبية مثلا!

وسكتت قليلا مرة أخرى، تسترجع قواها لاستئناف الكلام، ثم استدركت:

ـ ألم أقل لك؟: إنني أحِلت على المزبلة!.. هاي هاي!.. جمعية البر والإحسان!

وتكلمت بصراحة الشمس اللاهبة!.. ربما كانت تبوح على طريقة الاعتراف الكنسي استشفاء من ألم الضمير، أو ربما كانت ساخطة فعلا، لكنها لا تملك حيلة للتخلص من مآلها الحزين، أو ربما.. لست أدري،

ففي الواقع امرأة كهذه ليس من السهولة أن يدرك المرء ما يتكور في جحورها!

رفعت إليها بصري في غيظ مكتوم، وأفرجت عن سؤالي الذي كان معتقلا تحت لساني منذ بداية الحوار. قلت:

ـ وما الذي ترتجينه من هذا اليهودي؟

ألقت ابتسامة أطلت فجأة من وجهها، ثم برقت عيناها، وكأنها تقبض على شيء. قالت:

ـ أصْدُقك!.. بقي لي شيء واحد أنتقم به لشرفي!

انظروا! قالت: لشرفها!

ثم سكتت تنتظر استفهامي.. لم أتكلم، ولكني أبقيت عينيَّ في حالة انتباه، وكأنهما تسألان التفصيل.

قالت:

ـ أفكر في الذهاب إلى إسرائيل!..

سكتت برهة قليلة ثم استأنفت:

ـ أعرف أن هذا سيسخطك! لكنه الحل الوحيد لمأساتي.. تصور يا محجوب! البنت التي طردتني من مملكتي.. جاءت إلى عالم الثقافة من بوابة يهود!.. لم أر أكثر منها جرأة على الاستهتار بكل الأعراف والكرامات! لقد ذهبت إلى هناك اسما مغمورا لا يعرفه أحد. كانت تكتب الزجل وتغنيه وترقص! ثم عادت (شيخة) في الرقص والغناء.. و(الشعر) أيضا! هذا الزجل الساقط الذي تقرؤه في كل مكان!.. ضجت

الصحافة بالنقد والاتهام بضعة أيام، ثم لست أدري ماذا وقع للناس؟.. فجأة؛ بدأ الكلاب يتقاطرون على بيتها الواحد تلو الآخر، يقدمون آيات الولاء التام راكعين عند قدميها!..

إنها أفعى قديرة!.. أفعى بكل ما للكلمة من معنى! لقد جعلتهم جميعا يهتفون بمجد إسرائيل!.. أولئك هم المناضلون أمس، الذين طالما أنشدوا: (لا تصالح! لا تصالح!..)

إنها تقتحم بجسدها المندفع كالنار؛ كبرياءهم السياسي الكاذب، فتفضحهم بفضح نفسها!! تكشف كل الحجب والأستار! ولا تبالي!.. الجميع يعرف تفاصيل جسدها، شبرا بشبر..! هنالك اندست أنوفهم تلتهم المخدر الذي ركب فيهم ذلة الإدمان؛ فعبدوها!

فإذا الذين كانو يتحرجون أمس من الذهاب إلى تلك السفارة.. هذه التي تسمى (مكتب الاتصال)، إذ يأخذون تأشيرة إسرائيل من فرنسا؛ هم اليوم يدخلون بابها العريض هنا! وهي تتقدمهم، يمضون في واضحة النهار، تقودهم بروائحها الغاوية!

إنهم الآن كما ترى يتهافتون، ويتسابقون نحو (تل أبيب) يعبرون عن حسن نيتهم، ومسالمتهم، وولائهم، كل بطريقته الخاصة: كاهن المسرح، ودجال الرواية، وسادن الشعر، ومخرج أفلام الدعارة، ثم مرتزقة الصحافة والتلفزيون!.. ها هم كما تعرفهم واحدا واحدا.. يسقطون كما تسقط الطينة اليابسة في بركة النجاسة! فتذوب ذراتها هنالك إلى الأبد!

ابتسمت بهدوء؛ متعمدا ألا أبدو مفاجأ بكلامها. ثم قلت:

ـ هذا شيء أعرفه على العموم.. فأخبار كهذه هي موضة الحديث في كل مكان.. لكن، أخبرني كيف تنتقمين لنفسك بهذا الذي تشمئزين منه؟ وهم على كل حال قد وصلوا إلى نهاية السباق!

ـ أشمئز منه؟.. لا! لم يبق في الحياة شيء اسمه المبدأ، أو الوطن!.. المنفعة الشخصية هي بوصلة الحياة.. هذه هي فكرة ما يسمى اليوم (بالثقافة السياسية الجديدة) إذا كنت مواكبا!.. ثم بالنسبة لي يمكن أن آتي بالجديد دائما في هذا المجال، رغم أني فقدت جاذبية الجسد.. جعبة الشيطان لن تعجز عن إسعافي بكبائر التحدي!

نظرت إليها مليا.. التجاعيد الخفيفة تدب على وجهها دبيب الحزن في غصن الخريف.. كانت الأوراق أنيقة، بيد أنها تعبر عن جمال كان.

سألتني ساهمة:

ـ وأنت؟

لم أجبها، وإنما همزت فرسي وانطلقت بعيدا متدفقا مثل الريح، مخلفا ورائي عاصفة من الغبار!

وجدت رجلا يستظل وحيدا تحت طلل قديم.. كان السراب يمتد بين الرمال امتداد الموت في هذه الصحراء الأبدة، وكانت الهاجرة تسف الحياة في الوجوه، فتتشقق الشفاه وتيبس الوجنات.. قلت له بعد السلام:

ـ يا سيدي ألا ماء يقرب من هذه الأطلال؟

فرد على سؤالي بسؤال:

ـ أي ماء تريد؟

قلت على الفور؛ والشوق يسبق كلماتي إليه لعل وعسى؛

ـ ماء آل المحبوب!

قطب حاجبيه وسألني باهتمام كبير:

ـ من السائل الكريم أيها الوجه الذي ليس بأهل للغيّر؟

ـ أنا المحجوب.

وانتفض في مكانه كالنخلة، أو كأنما زرعت فيه الروح من جديد. فأقبل علي مرحبا:

ـ المحجوب! أمير العشاق!.. أنت هو إذن! قصتك يا ولدي ملأت كل البوادي، تغدو بها الركبان وتروح!.. لكن أخبرني بربك ألم تجد لك دواء سواها؟

قلت والأسى يعمر قلبي:

ـ جربت كل الأدوية يا سيدي، لكن دون جدوى.. دائي حير كل الأطباء والصيادلة.. هؤلاء المتكبرين الكذبة! أخذت بكل ما وصفوا، وما أكثر ما وصفوا! وما أكثر ما كذبوا!.. أمس فقط خرجت من آخر مصحاتهم الواهمة، خائبا يائسا.. لكن، قل لي بربك يا سيدي.. ما آخر الأخبار؟

وارتمى على عنق فرسي باكيا ثم رفع رأسه إلي وقال:

ـ خير الإيمان يا ولدي الرضى بالأقدار.. زعم الواصلون أمس أن

قد اشتعلت النار!..

همزت فرسي قبل أن أسمع البقية.. وانطلقت أسف الغبار من جديدا

وقفت على ربوة عالية أرقب غروب الدنيا بعينين ذاهلتين.. كانت جموع من الناس لها جلبة تترامى إلي أشباحا وأصداء.. انحدرت إليها، فإذا هم متحلقون حول غريق - قيل: غرق ببركة راكدة - كان ما تزال به بقية من حياة، لكنه ميؤوس منه. نظرت إلى زرقته الممتدة شاحبة فوق التراب، فإذا هو علي!.. طار قلبي فزعا مرة أخرى، اقتربت منه أكثر حتى أشرفت عليه.. نظر إلي بعينين قبض الموت رجاءهما، فنطقتا يأسا قاتلا. كانتا تقولان شيئا.. شعرت كأنهما تحذراني من أمر ما، أو تعزياني!.. لست أدري!..

وهمزت فرسي مرة أخرى.. وانطلقت نحو الماء!

***

ها أنت ذا تعثر على طلل الأحبة يا فؤادي، لكن بعد فوات الأوان!

هذا هو خبر اليقين تشم رائحته القاتلة الآن. فما بقي إلا معاينة المكان.

منكوب يقبع ساكنا تحت خيام الرماد، رآني عابرا مثل الريح فقام إلي جزعا فقال:

- يا صاحب الأمانة! انتظر.. احمل عني أمانتك!

التفت مضطربا، فرأيته يشير إلي بيده مناديا. قلت:

ـ إياي تنادي؟.. ماذا تقصد؟

قال وهو يتنفس الصعداء:

ـ هذا خبرها لك يثقلني!.. بالأمس تمت فجيعتك يا مجنون!.. حدثتني نسوة من آلها قلن: كانت وصيتها لك أن أبشر فقد تم اللقاء!

هكذا قالت.. فاعتبره ما تشاء: عزاء، أو هراء.. المهم أني أديت واجبي وأرحت عنقي.. والسلام!

كان الليل مسكونا بأحزان الضفادع، وهن يسفرن في بكاء أبدي.. وكان الشلال يتدفق مترنما بأشجى الرثاء.. مددت بصري نحو الأفق، أنظر ساكنا إلى دور الصفيح الممتدة أمامي مثل توابيت الموتى. كانت قد خرجت للتو من جذب مطري شديد، لكنها واجمة، لا تبالي بشقوق الانهيار.

وبدأت يا سادتي رحلتي من جديد.. حافي القدمين، عاري الرأس، منفرش الوجدان، أتبع خطوات العصا أمامي..سألت الأشباح والأرواح، سألت الأشجار عساها تقول لي شيئا.. سألت الأشياء كلها عن آل المحبوب، وعن الديار التي احترقت.. قررت ألا أوقظ نائما.. فهذا مقام التجريد والتفريد.. وأنا أود دخوله فردا!.. أنني وحده قادر على الوصول إلى الحرائق أينما كانت.. فلطالما تشممتُها نوحا لاهبا يصاعد من باطن الأكباد.. اجتزت عشرات الأكواخ المندسة خائفة بين الظلمة والأشجار.. كانت رجلاي تغوصان في الطين السادر على ضفة النهر، فتثور رائحته المختلطة برائحة الأغصان، التي تدلت حتى غطست

أوراقها في الماء، فاهترأت.. تملأ خياشيمي اليقظة بروح مخدر لذيذ؛ وأدفعها بدقات قلبي، لا، لا.. ما هذه التي أريد.

ألا ما أبعد هذا السرى!

وكان وقت آخر يا سادتي لست له محصيا.. فلا أذكر إلا حين فصَلَتِ العيرُ ووجدتُ ريحها.. لست أدري لِمَ شعرت بالأمل يعانقني بيدين قويتين، رغم أني كنت موقنا بموتها. قلت:

هي ورب الكعبة يا سادتي إلا أن تفندون!.. واندفعت رائحة الرماد المبتل تبشرني بالاحتراق! ثم بدا الحي أطلالا من صفيح متفحم وأحجار سوداء.. هنا كانت الحياة في يوم ما!..

أرسلت جوانحي هائما فوق أطيان الرماد.. كانت قدماي الحافيتان تتنقلان بين الخرائب في خشوع، أطأ بهما فأشعر بحرارة كالبكاء، تتدفق صعودا في جسمي النحيل. وأدخل في واردات الارتعاش، وأبكي صامتا كالنهر. ثم أستزيد من رائحة الرماد حتى السكر.. وكأنما الشوق الملتهب بقلبي يدخل في ظلال البستان! وليس بغريب، فإنما هي الأشياء تحيل على ذاتها. العود محترقا هو ذاته مزهرا، بيد أن الفصول تغيرت..

هذا مقام الجمال والجلال.. لو أن إمانويل كانط شهد تجلياته ههنا؛ لما فرق بين جميل وجليل! فالروح الذي فاضت جداوله على القلب لن يزال جميلا، ولو فقد تناسقه الظاهر.. ومتى كانت الأشياء ممتعة بذاتها؟ وما المتعة إلا ما ينبض بين جوانحنا أبدا!

فها هو جمالها الآن رماد أسود، لكن جلاله قد كسى الوقت جمالا!

وقفت وسط الحرائق أنصت إلى أعماقي، أحسست بلذة النعاس تحضنني، فاستسلمت للأحلام.. ومضيت بين الدروب مجذوبا ـ من حيث لا أدري ـ أدور حول الأشياء.. وفجأة انفجرت أصداء صوت ما في الأفق، تتدفق نحوي كالشلال! فانتفضت في مكاني مذعورا!.. أحسست بالفزع أول الأمر إذ لم أتبين لها جهة ولا معنى!.. انكمشت على نفسي مثل الطير المذعور. وشيئا فشيئا بدأت أدرك أنما هو الأذان!.. وتحول فزعي إلى نوع من الخجل: كيف أفزع لمثل هذه الأمور؟.. كيف يهرب مني اعتدادي البدوي بشجاعتي؟..

وعجبت من تأملي: هذا أذان الفجر، ولقد مضى علي الآن عشرون عاما ما سمعته خلالها قط!.. أبيت الليل سارحا بين المزابل كالخنزير، حتى إذا كان السحر غطست في القمامة، فارتفعت عني المدارك كلها!.. عجبا، عشرون عاما كاملة وأنا لا أعرف كيف يبتدئ الصباح!.. ولا كيف تولد الحياة!

وانطلق شريط الطفولة يتهادى كالظلال بذاكرتي، وسمعت بأذني صوت مؤذن القرية رحمه الله، يرفع الأذان الأول فالثاني، وانساب بصري يتأمل كيف كان يهيئ الفضاء لاستقبال بداية الحياة.. فتنطلق الأقدام الصغيرة حافية، وهي تجر الجريد اليابس إلى سطح الجامع لتركمه بين يدي الفقيه!

وتواتر لهاثي وأنا لا أتحرك من مكاني.. شعرت بالحرارة تشتعل مثل النار بأحشائي فتفيض بالحمم السائلة على جلدي.. كان عرقا لا يبرد رغم هبوب الريح الخفيف الذي يعبر المكان.. وفاجأني السؤال المحتار: أي جسم غريب هذا الذي يغزوني؟ أي حرارة هذه؟ أبدا.. هذا

شيء غير طبيعي!.. وأيقنت ـ إن استمر بي الحال هكذا ـ بالاشتعال!.. وركبني الفزع مرة أخرى، ولم أدر كيف خطر الشلال ببالي، فانطلقت أعدو، تسبقني الرغبة المجنونة في الحياة! ولم أشعر ببداية الراحة إلا بعد دخولي تحت أول دفقات الماء!..

وتركت جسمي تحت الشلال، ينساب مجذوبا بالسيل القوي نحو النهر، حتى إذا كانت البحيرة الأولى غطست بقوة نحو الأعماق، حتى ضربت بقدميْ في الطبقة الباردة، ثم ارتقيت كالبركان نحو السطح!.. وانبسطت أستريح فوق الماء، مستجيبا للانجراف الهادئ الجميل، رأسي إلى جهة المنبع، وقدماي تجران جسمي إلى أمام. انقلبت على بطني ورفعت رأسي إلى أعلى، ثم جعلت أسبح بيدي تحت الماء، أبطئ حركة الانجراف.. وانتبهت إلى الدفقات الأولى من أنوار الفجر، تتنفس فوق الصخور العليا من الشلال.. كان واردا غريبا، أحسست معه برغبة قوية في استنشاق خفقات من شهيق الحياة.. كانت الأشواق رمادية اللون تحتضن رغبة بنفسجية في البوح، لا تزداد مع التأمل إلا صفاء.. عجبا سادتي! وكأن إزارها الأسود يحتضن نارا!..

الآن فقط يا أحبتي اكتشفت سر بهاء التخفي! ها أنا ذا أقرؤه بعين التملي لهذه الألوان المتفجرة بالأسرار.. فما كانت لطائفه في يوم من الأيام شكلا يلف مضمونا.. اليوم أرى في صفحة هذه السماء أنه هو عين المضمون، والسر المكنون! التخفي هو طبيعة الروح. والويل لمن يتجرأ على إباحتها للريح؛ إذن تتبخر أحوالها، فلا يبقى له من حبيبة قلبه غير التراب والحطب الخراب.. وهنا فقط رأيت الأنوثة يا سادتي فضاء يفيض بالخصب والنماء، ويمنح الحب الذي لا يطاق!

أقسم لكم سادتي: إن هذا لهو تاج الكشف والتجلي!.. وإلا فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

ها هي ذي تعلو شيئا فشيئا، وكأنها الروح تحلق مع الأنداء، من فوق الشلال.. كانت الزاوية تبدو على السفح مثل جريدة يابسة، ضرب عليها العنكبوت بغلالة النسيان. تذكرت صديقي عليا، فأرسلت عليه نفَسا عميقا من الأسف!: ألا ما كان أقربه إلى منابع الفجر، وما كان أبعده!..

ورفعت بصري ثانية أتملى نور البلور المتدفق مع الماء.. أي جمال هذا وأي جلال؟! بل أي غباء هذا الذي شغلني عن لحظة ولادة الحياة كل هذا الزمان؟ آه.. أي ضياع هذا الذي ألقى بك يا كبدي في متاهة الجدل المزيف بين الجنوب والغرب، فلم أرفع بصري قط نحو الشرق؟.. عجبا! ومتى كان الجنوب مقابلا للغرب؟ بل متى كان كذلك حتى بالنسبة للشمال؟.. ألم تكن حركة النور هي وحدها أساس تصنيف الجهات منذ الأزل؟

ثم أكان ينبغي أن تحترق كل هذه المسافات الهائلة من عمري، حتى أعيش هذه اللحظة السعيدة؟.. وتذكرت سيدة البستان إذ تتجلى من بهاء التخفي.. فاحتضنتني أجنحة حانية كالبكاء.. لوددت الآن لو أنها تشاركني متعة هذا الميلاد، ولكنها هي الأخرى قد احترقت!.. وقد كانت هي سفينتي إلى النور. ولكن ألم يكن ينبغي لها أن تحترق فعلا؛ حتى يكون هذا الخطاب؟ وأي خطاب كان قبل إحراق السفن؟ بل وأي اقتحام؟!.. وتذكرت وصيتها الأخيرة.. فقلت في نفسي: صدقت سيدتي.. لقد تم اللقاء!.. فاشرح صدرك يا محجوب، وخض صفاء الماء،

فردا!

يا ولدي.. وتزود!

فغفوة واحدة كافية لضياعك بدوامة الهلاك!.. هذا مقام اليقظة؛ إن تدخل مدارجه فلن يأسرك تيه (المواسم) أبدا! وإنك تدري أن ليس آخرها (موسم الهجرة إلى الشمال)..! وإن لم تصدق فهذا هو النهر أمامك يشهد!

ولكني مع ذلك لم أملك نفسي في غمرة الفرح العظيم، ونسيت ذاتي أنساب غافيا مع الماء.. حتى أحسست بنفحة من النوم تغمرني بارتخاء النعاس، فأنا منذ عشرين سنة ما ذقت طعم النوم، لكن سرعان ما تذكرت! فانتفضت منزعجا، وشرعت أدور بمكاني أقاوم اندفاع الماء؛ لشدة ما أبغض برك النهايات.. فقد كان صبيب النهر متدفقا من الشرق نحو الغرب!.. رفعت ذراعي في الهواء، وخبطت الماء برجلي، ثم رفعت صدري عاليا كالحصان، حتى أشرفت على الشلال. واستجمعت كل قوتي، ثم جذفت بيدي.. وانطلقت أسبح ضد التيار..

شعرت بالماء يزداد دفئا وخفة.. كانت أحوال التغير تدخله شيئا فشيئا. فأيقنت أن تيارا جديدا قد خالطه. كانت الشمس قد تدلت عراجينها على المنابع الأولى، فبدت وكأنما تشرق عينها في عين الماء..

وأدركت سر التحول..

ثم بدأت أشق طريقي سابحا بسهولة عجيبة، وكأني محمول بأجنحة ما.. وامتد الأنس مقاما راقصا يغمر كل كياني.. أقبض ذراعيَّ وأبسطهما؛ فينقبض الماء من ضفتيه وينبسط لهما!.. وكأن جسم النهر

من جسمي! كأن؟.. بل ذلك ما أدركت من حقيقة أمري! فما بال (كأن) هذه تَلْبَس الحقائق على لساني؟

وعجبت: كيف اختار صديقي (علي) أن يغرق في بركة راكدة؛ وها هو ذا النهر حولي لا يمكنك أن تسبح فيه مرتين!؟

(انتهت)

مكناس: 13 صفر 1418هـ/1997/06/19م.

هذا الكتاب

لقد قررت الكلام.. سأبوح لكم، فلربما دلني أحد منكم عليها! من يدري؟.. فأنا رجل لا يعرف اليأس!.. سأظل أبحث في كل مكان.. حتى أجدها أو أموت معذورا!

ما تركت رائحا أو غاديا إلا سألته، ولا جبلا أو واديا إلا نزلته، ولا مدرا أو وبرا إلا طرقته!

استنشقت الريح الآتي من سهوب الشيح! لعلي... فما وجدت لرائحتها أثرا!.. نفضت البيداء، رمالها ونخيلها، سألت بعرانها وأشباحها، ولا من رش وجهي ببعض قصيدها!.. طفت المدائن كلها، دخانها وضبابها، هِمت بين الأزقة مجذوبا تحت الأمطار، أرجو إشارة آخر الليل، لعل ومضة من بين بوارقها تخطفني وأنا مبلول الأحزان.. ولكن، بلا جدوى.. تدفقت الأنهار على البحار!

***

سادتي!.. يا خبراء الأدوية والأدواء! ها أنا ذا أخرج أشعث أغبر إلى الخلوة فردا.. أبيع قميصي المغرور لريح الصحراء، أخطو خلف عصاي على لهيب الرمل الممتد امتداد الأسى بفؤادي، راحلا نحو جداول السراب!.. قالوا هنالك تنبت أعشاب الشفاء.

فدلوني!

الثمن: 20درهم

الإيداع القانوني 752/1998



مطبعة أنفو برينت
Imprimerie Info-Print